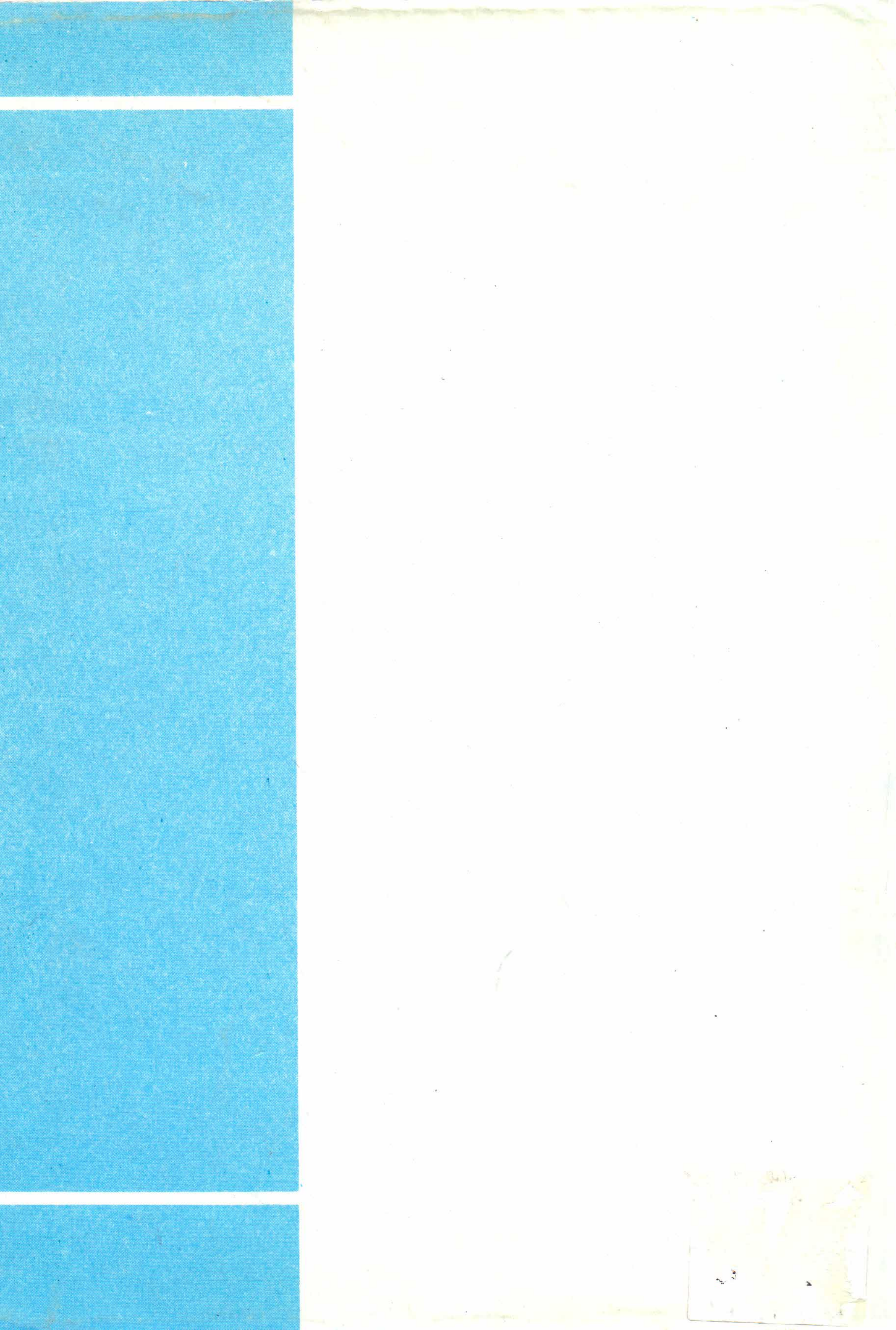
موسوعة المثقف المسلم

د. عماد الدين خليل

مؤشرات حول الحضارة الإسلامية

دار الصحوة للنشر والتوزيع



موسوعة
المثقف
المسلم

د. عماد الدين خليل

مؤشرات حول الحضارة الإسلامية

دار الصحوة للنشر والتوزيع

(١)

ثمة تقسيم تقليدى معروف يتردد خلال الحـديث عن الحضارة والثقافة والمدنية يتحتم ألا ننساق فيه ونستسلم لمقولاته •

ذلك هو أن الحضارة ، أية حضارة ، تتضمن (المدنية) التى تعنى بالجوانب المادية ، و (الثقافة) التى تعنى بالجوانب الفكرية والأخلاقية والفنيـة •• الى آخره •• وأن مكان العقائد والأديان إنما هو مسـاحة ما من هذه الدائرة الأخيرة ••

إن الدين ، أو العقيدة ، فى المنظور الاسلامى ، إنمـا هى أوسـع بكثير من أن تقتصر على جانـب ما من دائرة الثقافـة ، بل هى أوسـع حتى من دائرة الحضارة على امتدادها •

إنها رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان •• برنامج عمل ومنهاج حركة يهيمن على كافة المعطيات الحضارية : مدنية وثقافية ، ولا ينضوى تحت أية جزئية منهـا ، مهمـا كانت فاعلية هـذه الجزئيـة وتدفق معطياتهـا ••

ان هذه الرؤية العقيدية ذات الطـابع الشمولى هى التى يتحتم أن تحتوى الحضارة ، وتصبغها ، وتمنحها خصائصها ، وترسم سـبل صيرورتها ونموها •• وليس العكس بحال من الأحوال •

إن التقاليد الثقافية الوضعية من جهـة ، وانكماش المساحة التى تحركت عليها المسيحية والبوذية أو غيرهمامن الأديان والعقائدو الفلسفات وعـدم قدرتها على تغطية مطالب الحياة كافة ، والاستجابة لنـداءات القوانين والسنن التاريخية ، من جهة أخرى ، هى التى كادت أن تفرض

هـذا التقسيم الخاطىء الذى يحجم دور العقيدة أو الدين ، ويجعله أسير مساحة أو حيز من دائرة أكثر اتساعا هى دائرة الثقافة ••

والخطأ الذى يتمخض عن افتراض كهذا يقوم على اعتبار النشاط الثقافى البشرى هو القاعدة ، وهو الدائرة الأكثر اتساعا ، وما الدين أو العقيدة ؛ حتى على فرض التسليم المطلق بقدومها من السماء ، سوى جانب محـــدود من جوانب النشاط البشرى ، جانب لا يظل بحـــال محتفظا بأصوله السماوية بل ينضاف اليـــه ، بمرور الوقت الكثير من المعطيات والإسقاطات البشرية لكى ما يلبث أن يغدو ، فى معظم الأحيان، انعكاسا وضعيا صرفا ••

فى التجربة الغربية يمكن أن يجد المرء تبريرا لهذا الذى ينكمش غيه الدين ويغدو رافدا من عشرات الروافد التى تغذى بحر الثقـــافة الكبير •• يجد التبرير لأن التجربة الدينية نفسها ، كما قلنا ، اختـــارت أن تتحرك على مساحة ضيقة من الأرض ، وتركت ـــ بإرداتها أو طبيعة نسيجها ـــ المساحات الأوسع يعبث بها العقل الوضعى على هواه ••

لكننا كمسلمين ، لسنا ملزمين باعتبارات كهذه •• بتقسيمات هى وليدة تجربة غير تجربتنا ، وتاريخ غير تاريخنا ، ودين غير ديننا •• على وجـــه اليقين ••

لقد جاء الإسلام لكى (ينظم) كافة شؤون الحياة المدنية والثقافية ••• يصنعها ويهيمن عليها ، ويمنحها الطابع والصبغة •• جاء الإسلام لكى يشكل حضارته الخاصة به ، حضارته التى تستمد مقوماتهـــا من نسيجه ، بل تستمد كينونتها من مكوناته وتوجهاته وخصائصه •

وما دام الإســـلام يمد يده لكى يصوغ كافة مناحى الحياة المادية والروحية ، المدنية والثقافية ، فانه ليس من قبيل التعسف القـــول بأن

حضارة الإسلام إنما هى وليدة هذا الدين ، وأنها إنما تتخلق فى رحمه وتكسب مادتها وصورتها ، جسدها وروحها ، من نبعه الصاعد ودمه المتفجر بالحياة ..

وليس من قبيل التعسف رفض المقولة الشائعة ، المقولة الخاطئة ، التى تريد أن تجعل الإسلام ومعطياته ، تحتل جانبا ما ، مساحة فحسب من نسيج عام لحضارة يتصورون خطأ أنها تمخضت بالضرورة عن نشاط بشرى وضعى صرف .

ومنذ أكثر من عقدين طرح أحد كبار الكتاب الإسلاميين عبارة أن الإسلام هو الحضارة ، وهو بصدد مناقشة مسألة الاحتواء الحضارى للإسلام ..

وهذا حق ..

وحق كذلك أن نمضى خطوة أخرى الى الأمام ونقول بأن الإسلام هو صانع الحضارة .. وبالتالى فانه يستحيل — منطقيا — أن نجعله يمثل جانبا — محصورا من مساحة واسعة تمتد اليها حضارة هى وليدة الإسلام نفسه ..

إننا سنقع فى هذا اللبس بالتأكيد لو أننا سمحنا لأنفسنا بأن تنساق وراء التقسيمات التقليدية للتركيب الحضارى ، وهى — على كثرة تكرارها — أصبحت تملك ثقلا فرض على الكثير من الإسلاميين أنفسهم الخضوع لمقولاته ..

والتراجع عن الخطأ ، كما يقول المثل ، فضيلة ، وقد آن الأوان للتحقق بهذه الفضيلة .. كما أنه قد آن الأوان للتوقف عن الانسياق وراء التقسيمات التقليدية لأجدادنا أنفسهم وهم يتحدثون ، فى السياق

نفسه ، عن علوم (نقلية) وأخرى (عقلية) ، وكأن هناك جدارا فاصلا بين العلمـين ..

ويتساءل المرء : ألم يدخل الإسلام لكى يصوغ العلوم العقليـة ويتوغل فى جزئياتها ومسالكها برؤيته المتميزة وتحليله الخاص ؟ ويتساءل ـ كذلك ـ ألم تكن العلوم النقلية نفسها عقلية بمعنى من المعانى ، أى بكونها استجابة ناجحة متفردة لمطالب العقل البشرى ؟ .

إننـا بحاجـة الى التريث قليلا ونحن نتعامل مـع التقسيمـات والمصطلحات وإنه ليتحتم علينا أن نرفض (الكثير) من هذه التقسيمات وتلـك المصطلحات ، إذا اقتضى الأمر ، لكى ننحت ونصوغ تقسيماتنا ومصطلحاتنا المنسجمة مع رؤيتنا العقيديـة وصبغتنا الإلهية (صبغـة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟) [1] .

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٨

(٢)

أعاد الإسلام صياغة العقل البشرى بما يجعله قديرا على الفعل الحضارى من خلال تحققه بالشروط الحركيـــة والمنهجية والإبداعيـــة لهـــذا الفعـــل •

وذلك ــ بحق ــ هو الأساس الذى يتحتم أن نقف عنـــده قليلا ونحن نتحدث عن صيرورة الحضارة الإسلامية لكى نضـــع أيدينا على المنطلقات العقيدية التى مكنت المسلمين من ذلك التحقق الحضارى الفذ عبر التـــاريخ •

لقد تمت عملية إعادة الصياغة من خـــلال « نقلات » أساسيـــة ثلاث : نقله تصورية إعتقادية ، وأخرى معرفية ، وثالثة منهجية •

وسنحاول أن نعرض لها هنا بقدر كبير من الإيجاز (٢) •

(أ) النقـــلة التصورية ــ الاعتقادية :

ليس ثمة خطوة فى تاريخ البشرية حررت العقل ، وكرمتـــه ، ووضعته فى موضعه الصحيح كهذه الخطوة ، تحويل التوجه الإنسانى من التعدد إلى الوحدة ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحـــق الذى لا تلمسه الأيدى ولا تراه العيون •• كسر للحاجز المادى باتجاه الغيب ، وتمكين للعقل من التحقق (بقناعات) تعلو على معطيات الحس القريب•

---

(٢) وردت هذه المسألة مفصله فى كتاب للمؤلف بعنوان (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) ص ٢٧ ــ ٦١ •

لقد تحـــدث القرآن الكريم عن هــذه النقلة فقـــال إنها خروج بالنـــاس (**من الظلمات إلى النور**) •• للتحول الكامل من الأســـود إلى الأبيض ، والانتقـــال من النقيض إلى النقيض •• وقال أيضا بـــأن الإسلام جاء لتحرير بنى آدم (ويضع عنهم إصرهم والأغـــلال التى **كانت عليهم**) •• ونادى أكثر من مرة بأن الدين الجديد هو (**الصراط المستقيـــم**) وما وراءه فليس سوى التيه ، والاعوجاج ، والضياع ، والهوى والضلال •• ولن يقدر عقل مهما أوتى من فطنة على أن يعمـــل ويبدع ويعطى وهو يتخبط بالتيه ويكبل بالأغلال •

إن العقيدة الجديدة جاءت لكى تنقل الانسان إلى السعة والعـــدل والتوحيد ، هنالك حيث يجد العقل نفسه ، وقد أعيد تشكيله بهذه القيم ، قديرا على الحركة والفعل عبر هـــذا المـــدى الواسع الذى منحه إياه الإسلام ، غير محكوم عليه بظلم من سلطـــة فكرية قاهرة ترغمـــه على قبول ما لا يمكن قبوله باسم الدين ،متحققا بالتقابل الباهر بين الإنسان والله •• حيث يملك وحده حق التوجه ، والتعبد ، والمصير ••

ولكى ندرك البعد الشاسع لهذه النقلة التصورية فى مجال العقيدة فإن لنا أن نستحضر فى أذهاننا ممارسات العقل العربى فى الجاهلية ، وطرائق إدراكه للعالم ، وصيغ تعامله مع ما (تصـــوره) القوى التى تهيمن عليه وتسيره •• ونقارن هـــذا بالمستوى الذى احتله العقـــل المسلم بعد إعادة تشكيله بالاعتقاد الجديد •

لقد طرحت هـــذه العقيدة ، أو بنيت بعبارة أدق ـــ على حشد من القيم التصورية كالربانية والشـــمولية والتوازن والثبات والتوحيـــد والحركية والإيجابية والواقعية •• تلتئم وتتداخل وتتكامل لكى تشكل نسقا عقيديا ما بلغت عشر معشاره أية عقيدة أخرى فى العالم ، وضعية كانت أم دينية ، ولن تبلغه أبدا •• وكما أن هـــذا النسق المحكم يمثـــل

تطابقا باهرا مع معطيات الفطرة البشرية فى أصولها النقيــة الحرة ، فإنه يمثل فى الوقت نفسه ذات التطــابق مع معطيات العقل المحضــة وتطلعاته وآفاقه ••

إن التصور الإسلامى نسيج وحده •• وإن المغزل الإلهى الذى حاكه بإعجاز يصعب تنفيذه على الإنسان ، هو الذى عرف كيف يعيــد تشكيل العقل الجديد ، ويدفعه فى الوقت نفسه ، إلى الحــركة التى لا سكون بعدها ••

لقد منحه الأرضية ، وأعطاه الإشارة وسنجده ينطلق بعدها لكى يصنع المعجــزات •

(ب) النقــلة المعرفيــة :

وهى عمل فى صميم العقل من أجل إعادة تشكيله بالصيغــة التى تمكنه من التعامل مع الكون والعالم والوجود بالحجم نفسه ، والطموح نفسه ؛ الذى جاء الإسلام لكى يمنحها الإنسان •

منذ الكلمة الأولى فى كتاب الله •• نلتقى بحركة التحول المعرفى هــذه : (**اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الإنســان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقــلم • علم الانسان ما لم يعــلم**) •• وعبر المسيرة الطويلة ، مسيرة الإثنتين والعشرين سنــة ، حيث كانت آيات القرآن تتنزل بين الحين والحين ، استمر (التأكيد) نفسه لتعميق الاتجاه ، وتعزيزه ، والتمكين للنقلة ، وتحويلها الى واقع يومى معاش •

إن نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكير والتعقل والتفقه والتدبر •• إلى آخره •• منبثة فى نسيج كتاب الله •• لم تخفت نبرتها أبدا هناك فى العصر المكى أو هنا فى العصر المدنى •

ليس عبثا أن تكون كلمة (اقرأ) هى الكلمة الأولى فى كتاب الله ..
وليس عبثا أن تتكرر مرتين فى آيات ثلاث .. وليس عبثا – كذلك – أن
ترد كلمة (علم) ثلاث مرات وأن يشار بالحرف إلى القلم : الأداة التى
يتعلم بها الإنســـان ... وبعدها وعبر المدى الزمنى لتنزل القرآن ،
ينهمر السيل ويتعالى النداء المرة تلو المرة : اقرأ ، تفكر ، أعقل ، تدبر ،
تفقه ، انظر ، تبصر .. إلى آخره .. ويجد العقل المسلم نفسه ملزما ،
بمنطق الإيمان نفسه ، بأن يتحول ، أن يتشكل من جديد لكى يتلاءم مع
التوجه (المعرفى) الذى أراده الدين الجديد .

بل إن نسيج القرآن الكريم نفسه ، ومعطياته المعجزة ، من بدئها
حتى منتهاها فى مجال العقيدة ، والتشريع ،والسلوك،والحقائق العلمية،
تمثل نسقا من العطيات المعرفية كانت كفيلة ، بمجرد التعامل المخلص
الذكى المتبصر معها ، أن تهز عقل الإنسان وأن تفجر ينابيعه وطاقاته وأن
تخلق فى تركيبة خاصة التشوف المعرفى لكل ما يحيط به من مظـــاهر
ووقائـــع وأشـــياء .

لقد كان القرآن الكريم يتعامل مع خامة لم تكن قد حظيت مـــن
(المعرفة) إلا بالقسط اليسير ، مع جيل من الناس لم يبعـــد – بعد –
عن تقاليد الجاهلية وقيمها وطفولتها الفكرية .. لكنه قدر بقوة الإيمان
المعجون بالدعوة الجديدة ، على أن يعلمهم فعلا وذلك بأن يعيد تشكيل
عقولهم لكى تكون قديرة على اســـتيعاب المضامين الجديدة ومـــدركة
للأبعاد الشائعة التى جاء هذا الدين لكى يحرك الإنسان صوب آفاقهـــا
الرحبة ... وما كان ذلك ليتحقق لولا إشعال فتيلة التشوف المعرفى فى
العقل المسلم ودفعه إلى البحث والتساؤل والجدل ..

لقد انتهى عهد الاستسلام والسكون والرضا بأوساط الأشياء ..
وجاء عهد القلق والحركة .. بحثا عن الكمـــال الذى يليـــق بمعطيـــات
الدين الجـــديد ..

إن الإسلام لا يهتم بالتفاصيل ، ولكنه يسعى إلى تكوين (بيئـــة) عمل وإنجـــاز تتضمن كافة الشروط والمواصفات التى تمكنها من العطاء •• وها هنا فى حقـــل التوحد المعرفى تمكن الإسلام من خلق هــــذه البيئة •• فبعث أمة من الناس ما زال عقلها يعمل ويكد ويتوهج حتى أنار الطريق للبشرية يوم كانت تدلج فى ليل بهيم ••

إن النهار الذى أطلعته حضارة الإسلام الآتية ، ما كان له أن يطلع لولا الشعلة التى مست عقل كل مسلم ودفعتـــه إلى التألق وهو ينطلق لتعزيز يقينـــه الجديد •

(جـ) النقلة المنهجيـــــة :

ترتبط هـــذه النقلة ، بشكل ما ، بالنقلتين السابقتين وتنبثق عنهما فى الوقت نفسه •• ونحن نعرف اليوم كم يلعب (المنهج) دورا خطيرا فى حركة الإنسان الفكرية والحضـــارية عموما • • ونعرف أنه بدون (منهج) فليس ثمة طريق يوصــــل إلى الأهداف مهما بذل من جهــــد وقدم من عطاء •• وسنرجع إلى ذلك مرة أخرى ••

والنقلة المنهجية التى أتيح للعقل المسلم أن يتحقق بها ، أن يتشكل وفق مقولاتها ومعطياتها ، امتدت فى اتجاهات ثلاثة :

١ ــ السـببية : من خلال التمعن فى نسيج كتاب الله نجد كيف منحت آياته البينات العقل المسلم رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود •• تربط وهى تتأمل وتبحث وتعاين وتتفكر ، بين الأســـباب والمسببات ، تسعى إلى أن تضع يدها على الخيط الذى يربط بين الظواهر والأشياء فى هـــذا الحقل أو ذاك ، وفى هـــذه المساحة أو تلك •• لقـــد أراد القرآن الكريم أن يجتاز بالعقل العربى مرحلة النظرة التبســـيطية المسطحة ، المفككة ، التى تعاين الأشياء والظواهر كما لو كانت منقطعة

معزولة منفصلا بعضها عن بعض ، وهى خلال ذلك لا تملك القدرة على الجمع ، والمقارنة ، والقياس ، والتقاط عناصر الشبه وعزل عناصر التغاير •• لا تملك إمكانية التركيب والاختزال والتركيز للوصول إلى الدلالات النهائية للظاهرة من خلال معاينة ارتباطاتها وعلائقها بالظواهر الأخرى •

ولقد تمكن القرآن بطرقه المستمر على العقلية التبسيطية أن يعيد تشكيلها لتبعث من جديد بالصيغة التى أرادها لها : عقلية تركيبية تملك القدرة على الرؤية الاستشرافية التى تطل من فوق على حشود الظواهر بحثا عن العلائق والارتباطات ووصول إلى الحقيقة المرتجاة •

بل إن إحدى طرائق القرآن المنبثة عبر سوره ومقاطعه من أقصاها إلى أقصاها هى للتأكيد على ضرورة اعتماد هذه الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه •• إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات فإن العقل المؤمن لن يكون قادرا على التحقق بالقناعات الكافية ، ولن يكون بمقدور آيات الله المنبثة فى الطبيعة والعالم والوجود أن تحدث فينا هزة الإيمان العميق المتمخض دوما عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق •

لن يتسع المجال لاستعراض الآيات التى نادت المسلمين مرارا للتحقق بهذه الرؤية التركيبية ، والربط بين الأسباب ، فهى كثيرة جدا ، وبخاصة فى العصر المكى حيث كانت ضرورات "التربية العقيدية تقتضى التأكيد على تكوين عقليات كهذه •• تقارن وتركب وتربط بين الأسباب •

ومن خلال هذا التأكيد ، ذى الارتباط العميق بالموقف الإيمانى عموما ؛ أصبح العقل المسلم يرى فى رؤية كهذه ضرورة من الضرورات، بل بداهة من البداهات •• وراح يمارسها صباح مساء ، ويتمرن على

الأخذ بها والعمل وفق شروطها ، حتى غدت بالنسبة له تقليدا عقليا سائدا ، وغدا الكون والعالم والطبيعة والوجود – فى مقابل هذا – سلسلة من الظواهر والمعطيات يرتبط بعضها ببعض بأوثق الأسباب ٠

لقد انتهى عهد التفكك ، والعزلة ، والتبسيط •• إن الكون الذى هو تعبير عن إبداع الخالق، تشده قوانين واحدة، وأسباب واحدة ، ونواميس واحدة ، تصدر عن إرادة واحدة •• ولم يتحقق فهمه أبدا ما لم ينظر إليه من خلال رؤية عقلية تعرف كيف تجمع وتلم وتقارن وتختزل وتركب •• وصولا إلى الحقائق التى تبغيها ••

إن الكشف عن (السببية) والأخذ بشروطها المنهجية كسب كبير للعقل البشرى وإضافة قيمة مكنته من إعادة التشكل فى صيغ أكثر قدرة على العطاء والإبداع ٠

٢ – القانونية التاريخية : ولأول مرة فى تاريخ الفكر يكشف الغطاء أمام العقل البشرى عن حقيقة منهجية على درجة كبيرة من الخطورة : إن التاريخ البشرى لا يتحرك فوضى ، وعلى غير هدف ، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التى تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء ، سواء بسواء •• وإن الوقائع التاريخية لا تتخلق بالصدفة وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك ••

القانون يحكم التاريخ •• تلك هى المقولة التى لم يكن النقاب قد كشف عنها قبل نزول القرآن •• إن كتاب الله يقدم أصول (منهج) متكامل فى التعامل مع التاريخ البشرى والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب ، إلى محاولة استخلاص القوانين التى تحكم الظواهر – الاجتماعية – التاريخية ، كما فعل (ابن خلدون) – فيما بعد – على سبيل المثال ، فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة

التاريخ الذين ما تلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلا بعد انقضاء خمسة قرون • وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر فى القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة ، وعلى وجود (سنن) و (نواميس) تخضع لها الحركة التاريخية فى سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال •

إن المنهج الجديد الذى يطرحه القرآن الكريم يؤكد ، أكثر من مرة، على أن (التاريخ) لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يتخذ ميدانا للدراسة والاختبار تستخلص منه القيم والقوانين التى لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها •• إن القرآن يطرح على العقل البشرى — إذن — ولأول مرة مسألة (السنن) و (النواميس) التى تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذى لا يخطىء ، وعبر مسالكها (المقننة) التى ليس إلى الخروج عليها سبيل لأنها منبثقة من صميم التركيب البشرى ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز وأخلاقا وفكرا وعواطف ودوافع ووجدانا ، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة فى العالم الذى يتحرك فيه الإنسان ، والتى تتجاوز فى اتساعها وشموليتها تسميات البيئة الجغرافية أو الوضع الاقتصادى لكى تتسع للفعل التاريخى نفسه ، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة فى كيان الإنسان والتى تنبثق عنها المواقف التاريخية سلبا وإيجابا • ومن ثم فإن حكمها على هذه (الحركة) يجىء منطقيا تماما لأنه أشبه (بالجزاء) الذى هو من جنس (العمل) وعادلا تماما لأنه يكافىء الإنسان ، فردا وجماعة ، بما يوازى طبيعة الدور التاريخى الذى مارسوه ، حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية ، سلفا ، نتائجها التى ترتبط ارتباطا صميما بمقدماتها ، اعتمادا على استمرارية السنة التاريخية ودوامها •

والقرآن الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب ،

ولكنه يحولها فى الوقت نفسه إلى دافع حركى يفرض على الجماعة المؤمنة أن تتجاوز مواقع الخطأ التى قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار ، وأن (تحسن) التعامل مع قوى الكون والطبيعة ، مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه .

٣ ــ منهج البحث الحسى ــ التجريبى : يمكن القول بأنه لاالكشف عن السببية ولا القانونية التاريخية يعدل الكسب المعرفى القيم الذى أحرزه العقل المسلم خصوصا ، والعقل البشرى عموما ، والذى تمثل بمنهج البحث الحسى ــ التجريبى الذى كشف النقاب عنه ، ونظمه ، وأكده ، ودعا إليه : كتاب الله ..

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسى) إلى ما حولهم ، ابتداء من واقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون ، وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم فى مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب .. وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله .. إلى خلقه .. إلى طعامه وشرابه .. إلى الملكوت من حوله..إلى التاريخ وحركة الإنسان فى الأرض .. إلى خلائق الله وآياته المبثة فى كل مكان ..إلى النواميس الاجتماعية .. إلى الطبيعة والعالم .. إلى الحياة الأولى كيف بدأت ، وكيف نمت وارتقت .. ودعاه أن يحرك (سمعه) باتجاه الأصوات لكى يعرف ويميز ، فيأخذ أو يرفض ، فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان .

وانتقل القرآن خطوة أخرى فدعا الناس إلى تحريك (بصائرهم) تلك التى تستقبل فى كل لحظة مدركات حسية لا حصر لها ، ثم تتحمل مسؤوليتها فى تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى الحق الذى تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة.

وتتوالى الآيات ، تؤكدالمرة تلو المرة على أن السمع والبصروالفؤاد جميعا هى التى تعطى للحياة البشرية قيمتها وتفردها ، وأن الإنســـان بتحريكه هذه القوى والطاقات ، بفتحه هذه النوافذ على مصاريعهــا ، سيتبوأ مركزه المسؤول خليفة عن الله فى الأرض ، وأنه بتجميد هــذه الطاقات وقفل نوافذها يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التى ما أرادها له الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد .. منزلة البهائموالأنعام.

وحشد آخر من الآيات ، جاوز الخمسين ، حث على تحريك العقل، المفتاح الذى منحه الله لبنى آدم والذى يتوجب اعتماده لكى تمضى الكشوف والمعطيات إلى غايتها . وآيات أخرى نادت بوجوب (التفكر) و (التفقه) وهى خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير ، تجعــل الإنسان أكثر وعيا لما يحيط به ، وأعمق إدراكا لأبعاد وجوده وعلائقه فى الكون ، كما تجعله متفتح البصيرة دوما مستعدا للحوار المسؤول إزاءكل مايعرض له على صفحة العالم والوجود .

وأكد القرآن على الأسلوب الذى يعتمد (البرهان) و (الحجة) و (الجدال الحسن) للوصول إلى النتائج الصحيحـــة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص . ولا يسعنا هنا استعراض جل ما ورد من آيات فى هــذا المجال ، أو حتى الإشارة إليه ، ويكفى أن نشير إلى أن كلمة (علم) ، بتصريفاتها المختلفة ، وردت فى عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين .

ومن ثم فلا يتصورن أحــد أن الإسلام ما جاء إلا لكى يؤكد فى موقفه من العمل الحضارى على الجوانب الأخلاقية والروحية فحسب . إننا بإزاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة فى قلب العــالم والطبيعـــة وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس فى أعماق التربة وفى صميم العلاقات المادية بين الجزئيات

والذرات •• إنا بإزاء حركــة حضارية شاملة تربط بين مسألــة الايمان وبين الإبداع والاكتشف ، بين التلقى عن الله والتوغل قدما فى مســالك الطبيعة وأغاميضها •• بين تحقيق مستوى روحى عــال للإنسان على الأرض وبين تسخير طاقات العلم لتحقيق نفس الدرجة من التقــدم على المستوى المادى •• ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك •

والنتيجة المحتومة التى تمخضت عن هــذه التحولات الحاسمة عقيديا ومعرفيا ومنهجيا •• تشكل غقل جديد قدير على الاستيعاب والفعل والإضافة والإبداع •

وهكذا ، فإن النقلة أو التحول الحضارى الكبير الذى نفذه المسلمون وتحققوا به عبر قرون التألق والعطاء ، إنما جاء ثمرة (للعقليــة) التى صاغها الإسلام ومكنها بتحولاته الخطيرة تلك من أن تلعب دورها الشامل فى تكوين وإغناء الحضارة الإسلامية •

ولم تكن هــذه النقلة الحضارية ، بحال ، أقل خطورة من النقلات الثلاث التى مهدت لهــا وشقت أمامها الطريق •• فلقد كانت على درجة من الثقل والامتداد جعلتها أمرا تاريخيا مشهودا ،قدم إسهامه المتنوع الغزير ليس فقط على مستوى الجغرافيــة الإسلامية وإنما جغرافيــة العــالم الحضارى كلها ••

إن الأفكار ، أو النشاط العقلى ، بعبارة أخرى ، هو الذى يسهم جنبا إلى جنب مع قوى الإنسان الأخرى وطاقاته المتشعبة ، فى صناعة الحضارات وليس العكس ممــا تقول به بعــض النظريات التى أكدت رجعيتها آخر معطيات العلم الحديث •• صحيح أن الصيغة الحضارية تؤثر فى العملية العقلية وتلعب دورا أكيدا فى توجهاتها •• ولكن مفتــاح الحركة ، والكلمة الفاعلة فيها هى للعقل أولا وأخيرا ••

وهكذا فإن قيام الدين الجـديد بتشكيل عقـل إسـلامى فعال ، بالمواصفات التى تحدثنا عنها ، ومن خلال تحولات جـذرية على كافة المستويات العقيدية والمعرفية والمنهجية •• كان بمثابة إرهاص لمولد طاقة حضارية فذة كان لا بد أن (تلد) عطاءها المتواصل بعد أن نضج الجنين فى رحم تهيأت له كافة شروط الميلاد الميسور •

لقد شهد التاريخ حضارة الإسلام المبدعة •• وكان الأمر فى التحليل النهائى بمثابة تحقق فى الزمان والمكان ، للرؤية التى تنزل بهـا هـذا الدين ، فأعاد من خلالها صياغة الروح والقلب والعقـل والضمـير •• ولولاها •• لما كان بمقدور العقل العربى ، بمواصفاته التقليدية القديمة، أن يفعل عشر معشار هـذا الذى فعلـه بعد إعادة تشكله بالمـؤثرات والتحولات التى صنعها الإسلام ••

(٣)

تتدفق الحضارة كالمياه المتفجرة باتجاهات عديدة ، لكنها ــ بطبيعة الحال ــ متداخلة متشابكة ، تتبادل العلاقات التأثيرية فى هــذا الجانب أو ذاك • ويمكن تحديد هــذه الاتجاهات بدوائر أو قطاعات كبــيرة ثلاثة تتضمن كل منها حشودا من الفروع والجزئيات والتفاصيل وهــذه الدوائر هى :

أولا ــ دائرة النشاط الثقافىوهو الذى يتضمن الجانب العقيدى والفــكرى والروحى للحضارة ويلعب دوره الحاســم فى منحها سماتها المتفردة وشخصيتها المستقلة •

ثانيا ــ دائرة النشاط الاقتصادى والتقنى والعمرانى وهو الذى يتضمن الجانب المادى للحضارة ويصطلح عليه أحيانا بالمدنية •

ثالثا ــ دائرة النشــــاط الإدارى وهو الذى يتضمن الجــانب الفنى ويتحرك من خلال النظم والمؤسسات السياسية والإدارية التى تقوم بمهمة الإشراف والتخطيط للمعطيات كافة وتحــدد العلاقات بين العاملين ضمن حلقات الحضارة الواحدة •

وقد تدفقت الحضارة الإسلامية عبر هذه القنوات الكبيرة الثلاث ، وراحت تنمو وتتشكل وتزداد غــنى بمرور الوقت • وكانت العقيــدة الإسلامية التى صنعت هذه الحضارة وأدمتها بعناصر الحركةوالديمومة، تصبغ معطيات هــذه القنوات وتشكلها وتصوغها • وقد يحدث أن تند هذه الجزئية أو تلك عن هذا المنطوق ، لسبب أو آخر ، ولكن المجــرى العام كان (إسلاميا) رغم أن التمثل الإسلامى قــد يكون ناقصــا أو خاطئا أو غير منسجم ــ على الأقل ــ مع أطروحات الإسلام نفسه •

ومنذ اللحظات الأولى قدرت الحضارة الإسلامية الوليدة على أن تجابه التحديات المبكرة وتستجيب لها وتطويها عبر القنوات الثلاث : الثقافية والاقتصادية والإدارية فتزداد بذلك غنى وأصالة واتساعا • وبمرور الوقت شهدت المؤسسات الإسلامية التى غرست بذورها الأولى فى عصرى الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضى الله عنهم ، نموا متزايدا فى كافة المجالات،وأخذت المعطيات الحضارية تتصاعد وفق معدلات إنجاز زمنى سريع ومكثف ، لكى ما تلبث أن تبلغ منحنياتها المتقدمة بعد قرنين أو ثلاثة •

ولا نستطيع — مرة أخرى — أن نفصل بين هذه المعطيات وبين الأمة التى صاغتها وأبدعتها ، أى بين خصائص هذه المعطيات وبين قيم ومبادىء واهتمامات وتصورات الجماعات المسلمة التى صنعتها فكرا وعلما وفنا وأدبا واقتصادا وإدارة وعمرانا ، كما أنه ليس بمقدورنا أن نعلق خصائص هذه الحضارة على موقف السلطة فى التزامها أو عدمه من قيم الإسلام وأهدافه ، لأن السلطة،وإن كانت تلعب دورها البارز فى تكوين المنجزات الحضارية ومنحها بعض خصائصها ومكوناتها ، إلا أن هذه المنجزات تبقى دائما أكبر من السلطة ، من محاولات السلطة وضبطها ونظمها ، وتتسع منداحة باستمرار لكى تجىء دائما موازية لحجم الجماهير الأوسع والأقدر على الإنجاز ، والأكثر — فى معظم الأحيان — إيمانا والتزاما •• إن الحضارات الكبيرة تميل دوما لأن تكون تعبيرا عن معطيات أمة بكاملها •

وهكذا فإن الكثير مما تدين له الحضارة الغربية المعاصرة ، يعود فى أسسه ، باعتراف الغربيين أنفسهم كما سنرى ، إلى ذلك العصر الذى تفجر فيه كل ذلك الإبداع فى إطار قيم الإسلام ومثله ، على أيد وعقول وقلوب ما كانت تنبض وتتحرك وترعى — فيما عدا حالات محدودة — إلا بنبض عقيدة الإسلام نفسها وحركة شريعته ذاتها •

(٤)

والآن فإننا نريد أن نتابع ـ بإيجاز ـ بعض المسائل الأساسية فيما كانت تشهده كل واحدة من دوائر النشاط الحضارى الثلاث لكى نخلص إلى عرض مركز لخصائص الحضارة الإسلامية وأبعاد الدور الذى لعبته فى سياق الحضارات العام •

فى دائرة النشاط الإدارى الذى ينصب على النظم والمؤسسات السياسية والإدارية للدولة الإسلامية ؛ والذى يتدرج بشكل هرمى يبدأ فى قمته بمنصب الخلافة ، وينتهى فى قاعدته بصغار الموظفين والكتاب ، نلتقى بأساليب وصيغ حيوية (دانيامية) فى نمو الأجهزة والخدمات الإدارية ، وتشعبها ، وقدرتها على الاستجابة للتحديات والتفوق عليها من أجل السيطرة على مقدرات دولة تزداد اتساعا وتعقيدات ومطالب أمة تزداد تشابكا وامتدادا •

كان الهيكل الإدارى للدول الإسلامية المتعاقبة يتكون ـ عموما ـ من الخليفة ، أو من يحل محله فى المنصب الأعلى على اختلاف التسميات، ويليه الوزير ، فالحاجب ، فالوالى أو الأمير ، فرؤساء الدواوين ، فكتابها • وهنالك أيضا مؤسسات المالية ، والجيش ، والشرطة ، والقضاء، ولكل رؤساؤها وموظفوها • وثمة وظائف كثيرة متشعبة استحدثت فيما بعد ، خاصة فى العصور السلجوقية والأيوبية والمملوكية لكنها تندرج جميعا ضمن هذا الهيكل العام •

ولن يتسع المجال للحديث عن هذه المناصب ؛ وقد كتب عنها الكثير فليس ثمة جديد وليس ذلك من مهمة هذا البحث • ولكن يتحتم الوقوف بعض الشىء ، انسجاما مع سياق البحث ، عند مسألتين يمكن

أن يضرب بهمـا المثل على حيوية الإدارة الإسلامية وقدرة نظمهـا ومؤسساتها على الحركة والتكيف إزاء الضرورات والمتغيرات التاريخية، وهمـا (الديوان) و (التعريب) .

عندما كثرت أموال الدولة الإسلامية فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بسبب اتساع نطاق الفتوحات وتدفق الغنائم، أصبحت مسألة توزيعها بين المسلمين بشكل دقيق من المسائل الصعبـة التى تقتضى إيجاد نظام جديد قدير على أداء المهمة ، ولم يقف الخليفة حائرا إزاء هـذه المعضلة فاستشار أصحابه من ذوى الرأى ، وفتح صدره لوجهات النظر المختلفة ، وتقبل فى نهاية الأمر اقتراحا يقول بضرورة العمل وفق النظام الذى سبق أن أخذ به الفرس والروم :تدوين الديون .. لضبط الأسماء وتنظيم الأعطيات وتجاوز الفوضى والارتباك.

ولم يشأ الخليفة رضى الله عنه أن ينفذ هـذا (النظام) تنفيـذا حرفيا ، فهو لم يتعامل معه سوى كأداة يمكن توظيفها للحـاجات المستجدة لدولة الإسلام ، ورواية الطبرى المعروفة حول توزيع أسهم المسلمين والمسلمات فى أموال الدولة (٣) ، تبين لنـا بوضوح كيف قدر عمر رضى الله عنه على استخدام هذا الجهاز الدقيق لتطبيق مفاهيـم العدل الاجتماعى التى سعى جاهدا إلى تحقيقها فى المجتمع الإسلامى الجـديد .

ولم يلتفت عمر رضى الله عنه للاعتراض الذى رأى فى الأخـذ بالديون دفعا للعرب إلى إهمال نشاطهم التجارى أو عدم الاهتمام به ، ما دام الخليفة قد رأى فى الديوان ضرورة تحتمها الحالة التاريخية التى كانت تمر بها الدولة الإسلامية .

ومنذ اللحظات الأولى نلتقى بصيغة مرنة فى التعامل مع مفهـوم

---

(٣) تقويم الرسل والملوك ٤/١٦٢ — ١٦٣

الديوان ، ونجد توجها نحو التخصص فى العمل ، فهناك ديوان الجند لتدوين أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء ، وهناك ديوان الخراج أو الجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال وما يعرض لكل مسلم من العطاء ، واستخدم الكتاب والموظفون لتسيير شؤون هذه الدواوين •

فى العصر الأموى فرضت المتغيرات الإدارية والحضارية عموما إغناء نظام الدواوين بالمزيد ، فظهر ديوان الرسائل للإشراف على الولايات والرسائل التى ترد من الولاة ، كما ظهر ديوان الخاتم الذى كان يعد من أكبر دواوين الدولة والذى كانت مهمته تنصب على نسخ أوامر الخليفة وإيداعها الديوان بعد ختمها بخاتم صاحب هذا الديوان، من أجل حماية الأوامر الإدارية العليا من التلاعب والتغيير ، كما أنشىء ديوان البريد الذى تطورت خدماته وبنيته الإدارية بمرور الوقت تطورا دلحوظا •

وفى العصر العباسى الأول اتسع نظام الديوان بشكل ملحوظ وزادت الدواوين عددا وتخصصا استجابة للمطالب المستجدة ، وتبرز فى هذا العصر ، فضلا عن الدواوين آنفة الذكر ، دواوين أخرى من مثل ديوان الدية ، وديوان الموالى والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده) ، وديوان الحوائج ، وديوان الأختام ، وديوان المنح أو المقاضاة ، وديوان الأكرة للإشراف على الترع والجسور وشئون الرى •

ولكن أهم هذه الدواوين الجديدة ولا ريب كان ديوان الأزمة أو الزمام الذى أنشأه الخليفة المهدى والذى كانت مهمته جمع الضرائب وضبط حساباتها والإشراف على سائر الدواوين الأخرى من خلال دواوين أزمة فرعية يشرف كل واحد منها على أحد الدواوين المعروفة • كذا ابتكر العباسيون ، فى السياق نفسه ، ديوانا جامعا سموه ديوان

النظر أو المكاتبات والمراجعات ، وينقسم إلى أربعة أقسام:ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمـال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال وينظر فى الدخـل والخرج •

وعندما ولى المعتضد الخلافة (سنة ٢٧٩ هـ) رأى أن يخطو خطوة أخرى فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض وكون منهـا ديوانا واحدا أطلق عليه « ديوان الدار » ويسمى أحيانا «ديوان الدار الكبير»• وقد قسم المعتضد الديوان أقساما ثلاثة : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد (أى العراق) •

وإلى جانب هذا استمرت عملية تشكيل الدواوين الجديدة ، ونحن نجد مثلا عبر هذا العصر دواوين لم تكن موجودة فى فترات سـابقة مثل : ديوان النفقات الذى كان ينظر فى حاجات دار الخلافة ، وديوان المصادرين ، وديوان التوقيع الذى يتلقى رقاع أصحـاب الحاجات ، وديوان الفض الذى يتولى فض الكتب الواردة من الأمراء والعمـال إلى الخليفة ، وديوان الجهبذة ، وديوان البر والصداقات •

وفى عهد الفاطميين بمصر أضيفت دواوين أخرى مثل ديوان الكسوة والطراز ، وديوان الأحباس (أى الأوقاف) ، وديوان الرواتب •• الخ[٤]

ولم تكن حركة تعريب الدواوين بأقـل دلالة على قـدرة الدول الإسلامية على الاستجـابة للتحديات من أجـل التحقق بالمزيد من تحصـين الذات •

كانت الدواوين تعتمد لغة أهل البلاد المفتوحة طيلة العقود الأولى

---

(٤) انظر حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسى ١/٤٤٤ — ٤٤٨ ، ٢/٢٦٤ — ٢٦٥ ، ٣/٢٧٠ — ٢٧٢ (الطبعة الخامسة والسادسة) .

من الحكم الإسلامى ، فكان ديوان الشام يعتمد الرومية (اليونانيـــة) ، وديوان العراق وبلاد فارس الفارسية ، وديوان مصر القبطية • ولا يعنى هـــذا أن الدواوين لم تكتب إطلاقا بالعربية ، فقد كان ديوان الجند الاسلامى بالمدينة يحرر بالعربية منذ زمن عمر رضى الله عنـــه ، وإنما كان ديوانا المال والجباية هما اللذين يكتبان بلغة أهل البـــلاد المفتـــوحة •

ولكن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، بمجرد أن اســـتتب له الأمر ، أصدر أوامره بأن تكون اللغة العربية وحدها هى لغـــة الدواوين جميعها بقصد إيجاد الانسجام فى إدارة الدولة ، فنقل ديوان الشـــام من اليونانية إلى العربية ، كما أن الحجاج قام بنقل الديوان فى العراق من الفارسية إلى العربية ، أما ديوان مصر فتأخر نقله إلى أوائل عهـــد الوليد • ومن الجائز أن يكون سبب سرعة نقل ديوانى الشام والعراق دون ديوان مصر ، هو أن البلدين الأولين كانا عربيين منذ القدم •

ويرى ابن خلدون أن سبب تعريب عبد الملك الدواوين هـــو أن العرب فى زمنه كانوا قد انطلقوا من طور البداوة ، وأقبلوا على تعـــلم القراءة والكتابة ، ويرى أيضا أن الذى ساعد على اتخاذ خطوة التعريب هو أن اللغة العربية أصبحت فى متناول كثـــير من الكتـــاب فى البلاد المفتوحة ــ وهم الذين كانوا يملأون الدواوين ــ وبخاصـــة الموالى الذين أسلموا ؛ فمنذ عهد على رضى الله عنـــه ظهر بعض الموالى المهرة الذين كانوا يبحثون فى قواعد اللغة العربية وتبسيطها • كـــذلك سعى الحجاج عامل العراق لعبد الملك فى إيجاد ضوابط للغة العربية باستخدام التنقيـــــط •

وقد كان من نتائج تعريب الإدارة فى الدولة الأموية أن أقبـــــل كتابها من غير العرب على تعلم العربية لكى يستمروا فى عملهم بالدواوين

ولكن الخليفة حينما نقل ديوان الشام إلى العربية اضطر إلى عزل كتابه من الروم ، ويبدو أنه فعل ذلك لوفرة وجود كتاب من أهل الذمة يعرفون اللغة العربية . أما فى العراق فقد أرغم الحجاج كتاب دواوينه على الكتابة بالعربية دون الفارسية . وعلى العكس ، تأخر نقل ديوان مصر حيث كان يكتب بالقبطية أو باليونانية أو بالعربية ، وإن كان الوليد قد منع نهائيا التحرير باليونانية وجعل العربية اللغة الوحيدة فى الإدارة .

وهكذا أصبحت اللغة العربية لغة رسمية فى جميع أجزاء الدولة ، مما مهد لتعريب ألسنة شعوبها بحيث غلب الخط العربى على خطوطها ، كما انعدمت أمامه بعضها مثل : الآرامية والسريانية والقبطية . كذلك أصبحت اللغة العربية لغة الدين فى منطقة واسعة من البحر المتوسط ، ولم يقتصر الأمر على من تحول إلى الإسلام ، بل تعداهم إلى غيرهم من سكانها المسيحيين .

ولقد تبع خطوة تعريب الدواوين خطوة أخرى هامة ترمى إلى تقوية الحاكم الاسلامى بضبط ميزانيته واقتصادياته ، تلك هى تعريب العملة المتداولة فى شتى أنحاء الدولة الإسلامية والتى كانت غالبيتها ما بين بيزنطية وفارسية . فلقد أصدر عبد الملك أوامره منذ عام ٧٥ هـ بأن تتولى الدولة بنفسها مهمة الإشراف على ضرب العملة ونقشها ، ونهى عن أن يضربها غيرهم . ولقد كان من بين الأسباب التى دفعت عبد الملك إلى اتخاذ هذه الخطوة تهديد قيصر الروم له بأن ينقش على الدنانير التى يتداولها أهالى دار الإسلام ما يكره عن النبى صلى الله عليه وسلم (٥) .

---

(٥) انظر عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ٢/١٦٢ — ١٧٠ (الطبعة الثالثة) .

(٥)

وفى دائرة النشاط الاقتصادى : زراعة وتجارة وصناعة وحرفا ونشاطا ماليا ، نلتقى بحركة دائبة أسهمت فيها جل قطاعات المجتمع الإسلامى ، وضربت مثلا مشهودا على قدرة المسلم على الحركة فى صميم العالم ، واستثمار كنوزه وطاقاته ، وتنمية موارده من أجل توسيع مصادر الثروة والارتفاع بالمستويات المعاشية باستمرار .

لقد كان شعار المسلمين واضحا فى هذا الميدان ، مستمدا من كتاب الله نفسه (**فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه**) (٦) .. إن عقيدتهم لا تجرهم صوب الفرار من الفعل الاقتصادى أو احتقاره ، ولكنها تدفعهم إليه دفعا ، بل تعتبر ممارسته جزءا من العبادة الشاملة التى يتقرب بها الإنسان إلى الله . ومع ذلك فإن الموقف الإسلامى ، هنا ، يتميز عن سائر المواقف فى حده الآخر ، ذلك أنه فى المجتمعات المادية عموما يصبح النشاط الاقتصادى هو الوسيلة والهدف وهو غاية الغايات التى يتحتم أن يتمحورحولها سعىالإنسانوكدحه فىهذا العالم، بحيث إن كل الممارسات والمنازع الأخرى ، التى قد لا تقل التصاقا بالتكوين البشرى ، تصبح أمورا ثانوية بالنسبة للنشاط الاقتصادى ، بل تصبح وسائل لتحقيق هذا الهدف . وإنه لمن المحزن أن يغدو الدين ، والقيم الخلقية ، والمناشط الجمالية ، أدوات مسخرة لخدمة هذا الطاغوت المادى المتحكم برقاب الناس والذى يدفعهم دوما إلى التكاثر بالأشياء والأموال دون حد يقف عنده أو شرط إنسانى يضع له المعالموالموجهات.

بل إن الأمر ليزداد تشنجا فى المذهب المادى الذى وضعه ماركس وإنجلز وتلامذتهما فيصبح الاقتصاد هو الإله المتحكم فى مصائرالناس،

---

(٦) سورة الملك آية ١٥

وهو العقل الذى يسير حركة التاريخ ، والقاعدة التى تصنع القيم والتجارب والحضارات •

فى المجتمع الإسلامى يأخذ النشاط الاقتصادى حجمه الطبيعى ، يحتل مكانه الوسط كما هو الحال بالنسبة لكل المناشط الأخرى فى نسيج تجربة تنبثق عن رؤية وسطية إزاء كل المسائل والأشياء ، فلا هو الاحتقار والهروب الذى تمارسه بعض الأديان والمذاهب ، ولا هو بالتعبد والتأليه الذى تمارسه مذاهب وأديان أخرى •

صحيح أن العرب المسلمين تجنبوا ، فى العقود الأولى ، العمل فى بعض مناحى النشاط الاقتصادى ، وبخاصة الزراعة والصناعة ، بسبب انهماكهم فى الحروب ، وانصرافهم إلى السياسة والإدارة ، واكتفائهم المالى • بل إن بعضهم نظر — خطأ — إلى فعاليات كهذه نظرة ترفع ، وربما ازدراء ، واعتقد أنها من عمل الفئات الأدنى منزلة فى سلم الحياة الاجتماعية ، لكنهم بمرور الوقت تخلوا عن موقفهم الخاطىء هذا ، ونزلوا إلى الأرض والمصنع ، فزرعوا وصنعوا ، وسرعان ما بلغوا فى نشاطهم هذا مرتقى صعبا •

لقد كان العرب قبل الإسلام تجارا ماهرين ، وها هم بعد مضى عقود على ظهور الإسلام ، يتمرسون مع رفاقهم المسلمين من غير العرب على ركوب متن الأنشطة الاقتصادية الأخرى : الزراعة ، والصناعة ، والنشاط المالى •• وتشهد الأرض الإسلامية ازدهارا اقتصاديا شد أنظار العالم ، واستقطب توجهه المادى فى المشارق والمغارب •

ولولا الممارسات السلبية ، وسياسات الابتزاز والاستغلال التى مورست بين فترة وأخرى ضد المزارعين والصناع والتجار ورجال المال من قبل بعض السلطات ومراكز القوى ، لكان الحصاد أكثر غزارة ، وذخائر الإنجاز الاقتصادى فى ميادينه كافة أكثر كثافة وارتفاعا • وفى

المقابل فإن هذه السلطات ومراكز القوى لم تحول — بإخلاص — أن تمد يدها العاملين فى الحقول الاقتصادية لتقديم الخدمات التى تمكنهم من تحسين وتطوير صيغ عملهم •

إلا أن دسيرة التاريخ الإســـــلامى شهدت على الجانب الآخر محاولات إيجابية مخلصة ، قادها بعض الخلفاء والأمراءوكبارالإداريين، هـــدفها تحقيق أقصى درجات التنسيق بين الدولة والمزارع أو الصانع أو التاجر أو رجل المال من خلال تقديم الخدمات الفنية ، والضمانات الاجتماعية ، والحد من الضرائب ، ووقف صيغ الابتزازفىجبايةالأموال•

وليست محاولات عمر بن عبد العزيز فى العصر الأمـــوى (٧) ، وهارون الرشيد وقاضى قضاته أبى يوسف ، مؤلف كتاب (الخراج) فى العصر العباسى ، ونور الدين محمود فى العصر السلجوقى(٨) ، سوى محاولات جادة من بين العديد من المحاولات على هـــذا الطريق ، لقـــد كان هؤلاء القادة يستلهمون مبادىء الإسلام وتطبيقـــات الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضى الله عنهـــم ، فى برامجهـــم الاقتصادية ، فكانت النتائج خيرا وفيرا انصب عطاؤه فى خزائن الدولة وفى أيدى المواطنين على السواء •

وعلى العكس تماما ، فإن المظالم التى لحقت بالمزارعين أو الصناع والحرفيين فى بعض الفترات ، على أيدى الإداريين المتنفذين ، أو الملاك المترفين ، والتى كانت تناقض البداهات الاسلامية ما كانت تقـــــود إلا إلى مزيد من العثرات فى طريق الإنجاز الاقتصادى ومزيد منالتمزق فى النسيج الاجتماعى العـــام •

ومهما يكن من أمر فإن الأمة الإسلامية أثبتت ، من خلال نشاطهـــا

---

(٧) و (٨) انظر بالتفصيل كتابى المؤلف : ملامح الانقلاب ص ١٠٩ — ١٥٠ ونور الدين محمود ص ٩٣ — ١٢٦

الاقتصادى المتنوع ، والمنضبط فى كثير من الأحيان بالقيم والمؤشرات الإسلامية ، إنها أمة جديرة بالحيـــاة المستقرة الآمنة ، الكريمة ، التى بنتها بأذرعها وخبراتها ، ومنحتها الأرضية المادية الراسخة للتحرر من شد الضرورات والانطلاق صوب الآفاق الأبعد والأشمل والتى جـــاء الإسلام لكى يقود الناس إليها .

ونستطيع من خلال استعراض سريع لبعض النصوص والأرقام والإحصـــاءات والشهادات أن نضع أيدينا على ما يؤكد صـــــدق هذه المقولة ، ويفسر تمكن المسلمين من الأخذ بزمام المبادرة الاقتصـــادية فى العالم ، تماما كما كانوا قد أخذوا بزمام المبادرة فى الحرب والسياســـة والثقافة وسائر مناحى الحيـــاة .

(٦)

أما فى دائرة النشاط الثقافى الشامل فإننا نلمح التوجه الاسلامى بشكل أكثر وضوحا باعتباره انعكاسا للفكر والحياة والروح الإسلامية ، وحيثما تلفتنا عبر معطيات هذا التيار وجدنا صبغة إسلامية بهذه الدرجة اللونيـــة أو تلك .

لنأخذ مثلا العلوم الانسانية والآداب والفنون التى تشكل المساحة الأوسع فى دائرة الثقافة ، فماذا نجـــد ؟

المؤرخ وهو يبنى (معرفته) على أسس إسلامية ، ويقدم معطياته فى إطار إسلامى ، الجغرافى وهو يضرب فى الأرض ملقيا رؤيته على الظواهر والأشياء من منظور إسلام ى، بغض النظر عن الأخطاء الذاتية التى يقع فيها هــذا المؤرخ أو الجغرافى أو ذاك .

الفيلسوف والمنطقى وعالم الكلام وهو يجاهد لكى يحقق الوفاق بين فلسفات الأقدمين وبين تصوره الاسلامى ..

المربى وهو يسعى إلى صياغة وتوجيـــــه السلوك الفردى وفق مفردات الإسلام وقيمه ..

الأديب وهو يستمد من بحر العقيدة الجديدة الكثير من صيغـــه ومضامينه ..

الفنان وهو يبنى أو يرسم أو يشكل ما لا يمثل ارتطاما بمتطلبـــات الدين الجديد وتصوراته ؛ وما يغنى هـــذه المتطلبات بالمزيد من القدرات (التعبيرية) المنظورة .

قد يحدث أن يشذ هذا المؤرخ أو الجغرافى أو الفيلسوف أو الأديب أو الفنان ، لكنها استثناءات للقاعـدة الأوسع والأعرض ، ولن يؤخـذ بهـا أو يقـاس عليها •

والمجال لا يتسع ـ هنا كذلك ـ لاستعراض تفاصيل وجزئيات المعطيـات الثقافية كافة احضارة الإسلام ، ولا حتى للتأشير السريع على خطوطها العريضة ، فلقـد كتب فى ذلك الكثـير ونظمت المؤلفـات المزدحمة فى كل فرع من هـذه الفروع • ولكننا نريد ، بعـد وقفـة قصيرة عند بعض جوانب هـذه المعطيات ، أن نستخلص ونحن نتحدث عن خصائص الحضارة الإسلامية ، الملامح الأساسية للحركة الثقافيـة عبر التاريخ الإسـلامى ، ونضع أيدينا على مؤشراتها الأكثر ديمومة وحضورا وانتشارا •• الجوهر الذى يكمن خلف المظـاهر والأشكال المتغـيرة •

عموما فان النشاط الثقافى يتمحور باتجاهات أربعة هى :

(أ) العلوم بحقولها الثلاثة : الإنسانية والصرفة والتطبيقية(٩) •

(ب) الفنون (وقد تلحق بها الآداب وقد تـكون ضمن حقـل العلوم الإنسانية وهو الأرجح) •

(جـ) حركة التربية والتعليم ومؤسساتهما •

(د) العادات والتقاليد والميول والأذواق فى أطرها الاجتماعية •

---

(٩) يجب ان نلاحـظ ان العلوم الصرفة والتطبيقيـة إذا كانت تميل فى معطياتها الى الجانب المادى (المدنى) فانها فى فلسفتها ومناهجها وتوجيهاتها ترتبط ارتباطا وثيقا بالجانب الثقافى ، ولذا يمكن ان تحسب على هذا الجانب الأخير دون حسم او جزم •

واقـــد نفذت الثقافة الإسلامية عبر التاريخ تغطية شاملة لهـــذه المحاور بكافة تفاصيلها وفروعها ومنحنياتها وجزئياتها ، فقدمت حشودا من الكشوف والخبرات والإبداعات والمعطيـــات ، ودفعت بآلاف الكتب والمصنفات ، وبنت وأنشأت المئات من المراكـــز والمعـــاهد والمدارس والجامعات والمؤسسات ، وخرجت عشرات الألوف من الأساتذة والباحثين والمؤلفين ، واحتضنت مئات الآلاف من الطلبة والدارسين عبر العصور .

وكان الشعار والدافع ، ها هنا أيضا ، إسلاميا فى معظم مساحاته: طلب العلم من المهد إلى اللحد .. (الحركة) من أجله فى مشارق الأرض ومغاربها كما علمهم رسولهم ومعلمهم صلى الله عليه وسلم ، وكما بين لهم ودفعهم كتاب الله وآياته البينات فيما سبق أن وقفنـــا عنـــده فى بدء هـــذا البحث .

ومن خـــــلال نظرة سريعة على كتب (التراجم) التى تغص بها مكتبتنا التاريخية ، يتبين لنـــا بالأرقام والأسماء الواضحة المحـــــددة الحشد الهائل من المثقفين أو طالبى الثقافة أو العاملين فى هـــذا الحقـــل أو ذاك من حقولها .. مئات الآلاف من الأسماء تتضمنها كتب التراجـــم فيما لم تشهد له مثيلا أمة من الأمم فى التاريخ القديم والوسيط ، إن هذا يحمـــل دلالته (الإحصائية) الواضحة على حجم التيـــار الثقافى الذى شقه المسلمون عبر التاريخ ، وعلى تدفق مياهه واتساع مجراه .

ومن خلال نظرة سريعة ــ كذلك ــ على (مقدمات) الألوف مـــن المصنفات فى سائر مناحى العلوم والآداب والفنون التى كتبها أجدادنا المسلمون ، يتبين لنا بالدليل المشهود كيف أنهم كانوا يربطون تأليفهـــم ونمجزاتهم برؤيتهم الإسلامية ونظرتهم الإيمانية للعـــالم ، وتصورهم المتدين للكون والحياة والظواهر والأشياء .. كيف أنهم كانوا يبدأون عملهم باسم الله ، وينتهون منه بحمد الله ، حتى وهـــم ينشطون فى

حقول الطبيعة والهندسة والحساب والجبر والكيمياء •• حتى وهم يتدارسون الفلسفة والهيئة وعلوم الأقدمين •• حتى وهم يبنون ، ويرسمون ، ويزخرفون ، وينشدون • فإنهم إذ وجدوا الإسلام يحرم أصنافا من الفنون قد تقود الإنسان ثانية إلى الخطأ أو الإذلال ، سعوا إلى تصعيد طاقاتهم الفنية باتجاهات أخرى فتفننوا فى بناء المساجد البديعة والمدن الجميلة ، والزخارف الباهرة ، والخطوط التى تعزف وتغنى •• وما سمحوا لأنفسهم أن يغضبوا الله ورسوله ، أو أن يحدثوا فى نفوسهم وقناعاتهم الدينية شرخاقد يتسرب منه الازدواج ، والفساد ••

إن الانفصام النكد بين ثقافة المسلم وبين أصولها الدينية تقليد دخيل أرغمت عليه أجيالنا الحديثة والمعاصرة إرغاما •• جرعته رغبا ورهبا كما يجرع المريض دواء مرا ، فمن خلال (المدرسة) و (الجامعة) و (المنهج) ، ومن خلال التربية والتوجيه الإعلامى والفكرى ، ومن خلال المسار الثقافى العام للقيادات الحديثة ، تمكن الغرب من فرض رؤيته العلمانية ، وأحيانا المادية ، على مساحات واسعة من علومنا وآدابنا وفنوننا وأنشطتنا التربوية ، وتحقق له بعد جهد طويل لم يكلل بالنجاح الكامل لحسن الحظ ، إحداث هذا الفصام المشؤوم بين العلم والدين ، بين الثقافة بعامة وبين إطارها الإيمانى الذى تحركت من خلاله مواكب الآباء والأجداد عبر ثلاثة عشر قرنا أو يزيد ، دونما أى إحساس بالثنائية أو الازدواج ، بل على العكس ، بقدر معجز من التوحد ، وقدرة فذة على الإنجاز •

ما الذى قدمته الثقافة الإسلامية — عبر التاريخ — فى دائرة العلوم الإنسانية والصرفة والتطبيقية ؟

ما الذى أنجزته فى حقول العلوم الإسلامية ، من تفسير وحديث وفقه وكلام •• إلى آخره •• وعلوم اللغة والنحو والأدب (بأنواعه كافة) ، والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والمنطق ؟ ما الذى كشفت عنه

فى حقول الطب والصيدلة ، والفلك ، والهندسة ، والرياضيات ، والنبات ، والحيوان ، والكيمياء ، والطبيعة ؟ وما الذى نفذته فى حقول العلوم التطبيقية (التقنية) المتمخضة عن كشوفات العلوم الصرفة من أجل المزيد من الضمانات والتيسيرات للحياة البشرية ؟ وما الذى بنته ، وشكلته ، وزخرفته من مدن وعمارات ومساجد ومؤسسات ودور ومتنزهات ؟ وما الذى كتبته وغنته من قصائد وأزجال وأناشيد ؟ وما الذى أنشأته من مراكز التربية والتعليم ومؤسساتها ؟ وما الذى كانت تمارسه فى أروقتهما من نظم ومناهج وأساليب ؟ .

أسئلة مزدحمة لا تكون الإجابة عليها دقيقة وشاملة فى الوقت نفسه إلا بالرجوع إلى ما تركته لنا القرون من بقايا ثروة ضخمة من الكشوف والمصنفات والآثار ، قد نجدها فى كتاب ، وقد نجدها فى عمارة لم تندرس بعد ، كما قد نجدها فى المنقولات التى وصلتنا عبر تقلبات التاريخ . وقد نجد حصرا لها أقرب إلى الواقع العجيب من خلال بعض كتب الفهارس [10] التى وصلتنا وحدثتنا عما تم إنجازه فى الحقول المختلفة بما يدعو للدهشة والإعجاب ، والذى لم يصلنا منه سوى الكسور والأعشار .

ولنتذكر — على سبيل المثال لا الحصر — ما شهدته الساحة الأندلسية ، « فإنه لم تمض أعوام قلائل على سقوط غرناطة (١٤٩٢م) حتى ارتكبت أسبانيا النصرانية جريمتها الشائنة بتدمير تراث التفكير الإسلامى . ففى سنة ١٤٩٩ أمر الكردينال خمنيس ، مطران طليطلة ، بجمع جميع الكتب والآثار العربية من سكان غرناطة وأرباضها ، وتنظيمها أكداسا فى ميدان باب الرملة ، أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من

---

(١٠) انظر بخاصة : ابن النديم : الفهرست ، وحاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، وانظر كذلك : كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، وفؤاد شركين تاريخ التراث العربى .

المصاحف البديعة الزخرف وآلاف مؤلفة من كتب الآداب والعلوم ، واحتفل بإحراقها (بعمل من أعمال الإيمان) ولم يستثن منهـــا سوى ثلاثمائة من كتب الطب ، وهبت لجامعة الكالا (القلعة) • وهلك فى تلــك المحنة معظم تراث الأندلس الفكرى • وقد اختلف المؤرخون فى تقدير عدد المخطوطات العربية التى ذهبت فريسة هــذه الجريمة الشائنة ، فقدرها بعضهم بأكثر من مليون ، ولكن (كوندى) قدرها بثمانين ألفا ، وتقديره أرجح وأقرب إلى المعقول ، لأن المكتبــة الأموية الشهيرة فى قرطبة ، لم ترد ـــ طبقا لأصح الروايات ـــ على ستمائة ألف مجلد ، وقد بددت هــذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر ، ولم يجتمع فى غرناطة مجموعة بهــذه الضخامة •• ولكنها كانت وهى عاصمة الإســـــلام فى الأندلس تحتوى أنفس الآثار العربية الأندلسية •• ولقد بلغت المجموعة العربية فى الأسكوريال ـــ قريبا من مدريد ـــ فى أوائل القرن السابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد ، ولبثت هــذه الآلاف العشرة من المخطوطات الأندلسية والمغربية فى قصر الأسكوريال زهاء نصف قرن ، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها فى اسبانيا • ولكن محنة جديدة أصابت هــذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكرى • ففى سنة ١٦٧١ شبت النار فى الأسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينفــذ منه أكثر من ألفين هى التى تثوى اليوم فى أقبية الأسكوريال » [١١] •

ولنتذكر كذلك ما فعله المغول فى بغداد عاصمة الخلافة العباســية وما فعله الصليبيون فى الشام وفلسطين من تدمير وإحراق مئات الآلاف من الكتب ، وما شهدته مكتبة القاهرة فى إحدى الفتن الداخليـــة أيام المماليك حيث نهبها الثائرون ومزقوا كتبها واستخدموا جلودها نعالا لهم، وألقى عدد منها فى النيل ، وحمــل بعضها إلى شتى الأقطار ، وما بقى

---

(١١) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ص ٣٢٦ — ٣٢٩ (الطبعة الرابعة) •

منها سفت عليه الرياح وتراكمت فوقه الرمال ، فتحول إلى تلال عرفت باسم تلال الكتب •• [١٢] •

مهما يكن من أمر فإنه إذا كان لا بد من تقديم الشاهد على بعض معطيات الثقافة الإسلامية ، فلنختر إحدى المحاور أو الحقول ، ولنقف - على سبيل المثال الموجز لا الحصر - عند شيء مما قدمته هذه الثقافة فى حقل العلوم الصرفة والتطبيقية ، أما الإنجازات بتفاصيلها فيمكن أن يجدها القارىء فى أكثر من كتاب ، مما سنحيله على بعضه •

فى الرياضيات أسهم المسلمون فى إغناء المعرفة الإنسانية ، وقد تابعوا دراسة علم الحساب إلى مدى بعيد ••

فالدولة الإسلامية تطلبت تقديرات حسابية لتنفيذ أحكام الزكاة والجزية والخراج وتقسيم الإرث كما نص على ذلك القرآن •

فى الجبر برز محمد بن موسى الخوارزمى (توفى ٨٥٠ م) الذى يعود إليه تأسيس علم الجبر ، وهو الذى تعمق فى هذا العلم إلى مدى أبعد من الإغريق ، وكتابه (كتاب الجبر والمقابلة) قدم للعالم تعبيرا خاصا عن هذا الفرع من الرياضيات •• ويعد كتابه أفضل كتاب فى مادة الجبر حتى الأزمنة الحديثة • وأدخل البتانى (توفى ٩٢٩ م) النسبة فى علم المثلثات كما هى معروفة اليوم • وتبعه عالم عربى لامع فى الرياضيات هو أبو الوفا (توفى ٩٩٧ م) الذى اكتشف معادلة لجمع الزوايا •• وهو الذى اكتشف أيضا الخط الذى يقطع القوس • أما الهندسة فقد كانت متقدمة عند المسلمين وهم الذين استخدموها فى مجالات عملية كالمساحة وإنشاء طواحين الماء ، إضافة إلى استخدامهم إياها كثيرا فى أغراض الزينة فى فنهم • ولعل أهم إسهام للعرب فى

---

(١٢) انظر كتاب (فصول فى المنهج والتحليل) للمؤلف ص ٦١ - ٦٤

حقل الرياضيات كان إدخالهم الرموز التى سموها (الأرقام الهندية)٠٠ والمسلمون هم الذين بسطوها وجعلوها طيعة بحيث قبلها العالم على مر العصـــــور ٠

في الفيزياء عارض ابن الهيثم (توفى ١٠٣٩) ، الذى برز فى علم البصريات ، إقليدس وبطليموس فى زعمهما أن العين ترسل إشعاعات إلى الشىء المنظور فتمكن من رؤيته ، وأصر على أن عملية الرؤية تحدث عندما يرسل المنظور إشعاعات تدخل العين ، وقد وجد لدى تفحصه قدرة القمر على الإشعاع أن القمر ليس بالجسم الصقيـــل كالمرآة ، ومن ثم اكتشف أن جميـــع الأجسام الملونة تعكس الضـــوء وأن الضوء واللون متطابقان ٠ ولإثبات فرضياته قام بتجـــــارب أدت به إلى اختراع آلة للتصوير ٠ وتشير الأبحاث الحديثة فى مخطوطاته إلى أنه كان مدركـــا تمام الإدراك دور الرياضيات فى نظريتـــه فى البصريات ، وقد خلص البحاثون إلى اعتباره بكل جدارة مؤسس علم الفيزياء بالمعنى الحديث للكلمة ٠ أما البيرونى (توفى ١٠٥٠ م) فقد اكتشف عن طريق التجربة عددا من الجاذبيات المحدودة بوساطة ما أسماه (المخروط) ويعد هـــذا أول مقياس للثقل النوعى ٠ أما الخازنى (توفى ١١٠٠ م) فقد استخدم مقياسا الكثافة شبيها بذلك المقياس الذى استخدم قديما فى الإسكندرية للتجرى عن خواص السوائل كما بحث مشكلة كثافة الماء عنـــد منتصف الكرة الأرضية ، تلك المشكلة التى تناولها بعينها روجر بيكون ٠

فى علم الفلك ، الذى لقى ترحيبـــــا كبيرا لدى المسلمين بسبب اهتمامهم (بعلم الميقات) الذى يحدد مواعيد الصلاةواتجاهمكةالمكرمة٠٠ برز عدد من العلماء منهم الفزارى (توفى٧٧٧م) الذىأنشأ الإصطرلاب، ثم البتانى (توفى ٩٢٩ م) الذى قام ببعض الأرصاد الفلكية الهـــامة وبعض المقاييس ، وتبعه عمر الخيام (توفى ١١٥٣ م) الذى صمـــم تقويما جديدا هو التقويم الجلالى ، وقد أخطأ الخيام بيوم واحد فقط

فى كل خمسة آلاف سنة • أما أبو معشر (توفى ٨٨٦ م) فقد بحث بشكل دقيق فى العلاقة بين المد والجزر وحركة القمر • إلا أن أهم إنجازات المسلمين فى علم الفلك تتمثل فى تصميمهم المرصد • وعلى الرغم من أن الإغريق صمموا عدة أدوات فلكية ، منها الإصطرلاب ، إلا أن المرصد بشكله المخصص والمنظم لم يظهر الوجود إلا فى العصر العباسى •• وقد استخدمت فيه أدوات من مثل : ذات الربع ، والإصطرلاب ، والمحلق ، والكرات الهندسية •

وفى الكيمياء (حيث لم يستطع الأقدمون التمييز بينها وبين الصيدلة لعدة قرون) ، أجريت تجارب متقدمة وقطعت أشواطا أكبر مما تكهن به الإغريق • وبرز عدد من الكيماويين كان من أبرزهم جابر بن حيان (توفى حوالى ٨١٥ م) الذى أجرى عددا من التجارب على المواد العضوية الحيوانية والنباتية •• وسجل ملاحظاته وتجاربه التى أدت إلى تحضير حامض الآزوت لأول مرة فى التاريخ • وقدم وصفا كاملا لعملية تحضير الفولاذ وتصفية المعادن الأخرى ، وعملية صبغ الأقمشة ودباغة الجلود والدهان لصنع الملابس الواقية من الماء ، وكيفية حماية الحديد من الصدأ • كما عرف صناعة حامض الخل إلى جانب وصفه بدقة بعض العمليات الكيماوية كالتبلور والانحلال والتكرير •

وكان الرازى ، رغم شهرته فى ميدانى الطب والفلسفة ، ذا قدم راسخة فى مجال الكيمياء • إلا أن اهتمامه تركز على الكيمياء المختبرية أكثر من الكيمياء العامة وفرضياتها • وهو صاحب مذهب فى دراسة الكيمياء أخذ يوسع مجال المعرفة الكيمياوية شيئ فشيئا بجهود الباحثين فى هذا المضمار • وقد استخدم عدة مواد فى تجاربه منها كل المعادن المعروفة فى عصره ، وهو أول من وضع نظاما لتصنيف الحيوان والنبات والمعدن • وهنالك أيضا أبو منصور موفق أول كيماوى ميز بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم وقد شرح كيف يعطى الجص إذا

سخن نوعا من الكلس لتضميد كسور العظام وتعرف هذه المادة اليوم بجص باريس وتستخدم كثيرا فى الصناعة وبخاصة صناعة القوالب ..
ولقد دأب الكيماويون المسلمون على تجاربهم بكل حرية إلى أن توصلوا إلى الكشوف العلميـــة التى أدت بدورها إلى تطور الكيمياء بشكلهـــا المعـــاصر .

فى علم النبات نلتقى بعالم الطبيعة القرطبى أبو جعفر الغافقى (توفى ١١٦٥ م) الذى قام بجمع مجموعات من النباتات من اسبانيـــا وشمال افريقيا وأطلق عليها تسميات بالعربية واللاتينيـــة والبربرية ووصفها بدقة فى كتابه (الأدوية المفردة) ، كما نلتقى بالصيدلى وعالم النبات العظيم ابن البيطار (توفى ١٢٤٨ م) الذى اعتمد فى كتابه على أعمال الغافقى وارتحل إلى شمال إفريقيا وإلى سوريا باحثا فى حيـــاة النباتات ، وقد ذاعت شهرته من خلال كتابيه (المغنى فى الأدويةالمفردة) و (الجامع فى الأدوية المفردة) اللذين يبحث أولهما فى المواد الطبيـــة ويبحث ثانيهما فى الحيوان والنباتات والمواد المعدنية ذات الخـــواص الطبية . وقد صب عنايته على المعلومات التى زوده بها سابقوه ولكنـــه أضاف ثلاثمائة مادة جـــديدة إلى المواد المكتشفـــة سابقا وعـــددها ألف وربعمائة .

فى الطب اقتبس الأطباء المسلمون عن الإغريق النظريات الطبيـــة التى لا تشكل قاعدة ثابتة ومرضية لعلاج المرضى، إلا أن الأطباءالمسلمين ركزوا على الأمور العملية بدلا من النظرية فى العلاج الطبى ، وقاموا بكثير من الاكتشافات الطبية وأحرزوا تقدما كبيرا فى فن الاستطباب وكان من أشهر هؤلاء الأطباء الزهراوى (توفى ١٠١٣ م) الذى يضم كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) قسما عن الجراحة يعتبر أعظم إسهام فى هذا الموضوع فى القرون الوسطى ، والرازى (توفى ٩٢٥م) الذى كان أول من ميز بين مرضى الجدرى والحصبة وذلك فى كتابه (فى

الحصبة والجدرى) ، أما كتابه الكبير (الحاوى) فيعتبر موسوعة طبية يلخص فيه معارف الإغريق والفرس والهنود فى الطب ويضيف بعدها ملاحظاته الشخصية • أما فى طب العيون فهنالك على بن عيسى وعمار الموصلى (وكلاهما عاشا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر) وقد ألف كل منهما الكتب حول الطب ووسعا دائرة المعرفة الطبية اليونانية وأضافا التعليمات العديدة حول إجراء العمليات كما أضافا ملاحظاتهما الشخصية • وإلى الأطباء المسلمين يعود اختراع الأدوات الجراحية ونظام فحص المريض بشكل كامل ووصف العديد من الحالات الطبية والأمراض ، كما كانوا يملكون موهبة نظرية وعملية فى تصنيف علوم الطب وتقديم نتائجهم فى كتاب عملى واضح للطلاب وللأطباء معا • غير أن أكبر إنجاز طبى للمسلمين يتجلى فى إنشاء المستشفيات وإدارتهم إياها على أكمل وجه وفق نظام دقيق لا يزال يعمل به حتى الآن •

وفى علم الجغرافيا صحح المسلمون فى كثير من الأحيان معطيات الجغرافيا الإغريقية ، بعد قيام الرحالة المسلمين بكشوفهم الجديدة فى الأصقاع البعيدة • وقد امتد شمول علم الجغرافيا العربى من الجزائر إلى الخالدات غربا إلى كوريا واحتمال وجود اليابان شرقا وأصدر الجغرافيون الكتب التى تصف الطرق والمدن الإسلامية ، وأسهموا فى توسيع مجال علم الجغرافيا • ومن أبرز هؤلاء المقدسى (توفى ١٠٠٠م) فى كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) الذى تضمن بحوثا فى المناجم واللغات المحلية وعروق البشر والعادات القومية والديانات والأوزان والمقاييس •• الخ •• كما كان هناك جغرافيون هامون فى القرن العاشر هم البلخى والإصطخرى وابن حوقل • وعرف القرن الثانى عشر أعظم عمل جغرافى عربى منظم فى كتاب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) للإدريسى (توفى ١١٦٦م) الذى عمل فى بلاط الملك النورماندى روجر الثانى ملك صقلية فى باليرمو • ويضم كتابه العظيم أعمال الجغرافيين السابقين كما يضم المعلومات التى رواها الرحالة ، ويشير

الكاتب إلى افتراض أن الأرض كروية ••• وبصـــورة عامة فإن أهمية الجغرافيين المسلمين تكمن فى رسمهـــم الخرائط الجغرافية ووصفهـــم التفصيلى لمناطق خاصة ــ أى الجغرافية المحلية ــ ويعود اليهم فضل حفظ النظرية القديمة القائلة بكروية الأرض (١٣) •

أما فى مجال العلوم التطبيقية فيكفى أن نشير إلى دور الحضارة الإسلامية فى تطوير استخدامات الرى والميكانيك ، وتحسين صنـــاعة الورق ، وتكرير السكر ، واختراع البارود •• وغيرها كثير ••

وليس ثمة من داع لاستعراض ، أو حتى للإشارة إلى ، إسهامات المسلمين الكبيرة فى حقول العلوم الإنسانيةكالتاريخوالاقتصادوالقانون والسياسة والتربية والنفس ومناهج البحث والاجتماع والنظم الإدارية والآداب والفنـــون •• إلى آخره ، وتأثيراتها فى مجرى الحضـــارات البشرية وبخاصة الحضارة الغربية ، فهى أوضح للعيان وأشد حضورا من أن يشار اليها أو يدلل عليها ••

ولنكتف ــ فى ختام هذا المقطع ــ بالحديث عن بعض مراكزالتربية

---

(١٣) لويس يونغ : العرب واوربا ص ٧٢ ــ ٧٤ ، مقتطفات من ص ٩٨ ــ ١٠٦ وانظر عن اسهامات المسلمين العلمية بالتفصيل : جلال مظهر : اثر العرب فى الحضارة الأوربية ص ٢٠٣ ــ ٣٥١ ، العقاد : اثر العرب فى الحضارة الأوربية ، د . أحمد عيسى : آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ، د . على عبد الله الدفاع : إسهام علماء المسلمين فى الرياضيات ، د. عبد الحليم منتصر : تاريخ العـــلم ودور العلمـــاء العـــرب فى تقـــدمه عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، د . ياسـين خليل : التراث العلمى العربى ، عبد الله الجرارى تقـــدم العرب فى العلوم والصناعـــات ، حكمت نجيـــب عبد الرحمن : دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ، ادوارد جى براون : الطب العربى ، د . توفيق الطويل : العرب والعلم ، اندوميلى : العلم عند العرب واثره فى تطور العلم العالمى ، كارلو نللينو : علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ، ماجد عبد الله الشمى : مقدمة لعلم : الميكانيك فى الحضارة العربية ، دائرة المعارف الاسلامية . . الى آخره .

والتعليم لنرى كيف أنه فى المنظور الإسلامى يلتقى ما هو دينى بما هو دنيوى •• الإيمان والعلم •• الروح والجسد •• الغيب والطبيعة فى كل واحد متماسك ، فى نسيج تختفى فيه السدى واللحمة ، عبر تقليد ثقافى أصيل يغدو فيه المسجد مدرسة للتنقيب فى الأرض ، ويصير العلم وسيلة للطموح إلى السماء •

كان المسجد أعظم معاهد الثقافةلدراسةالقرآنوالحديثوالفقهواللغة وغيرها من العلوم ، وأصبح كثير من المساجد مراكز هامة للحركةالعلمية منذ لحظة إنجاز المسجد الأول فى المدينة وطيلة القرون التالية • ونحن نذكر كيف أصبح الأزهر ، الذى بدأ كغيره من المساجد ، جامعة يدرس فيها التوحيد والفقه واللغة والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم ، وكيف أصبح مسجد القرويين فى فاس بالمغرب مركزا هاما للثقافة الإسلامية ، كما أصبحت هذه الجامعة شاهدا على حرية التعليم وعلى طرق التدريس ومراحل التعليم وتخصيص كراسى الأستاذية وشروط التعيين فى وظائف التدريس ومراسيم تعيينهم ودرجاتهم العلمية والإجازات الفخرية ومجالس أوصياء الكليات ، والمساكن الجامعية للأساتذة والطلاب ، والمكتبات الجامعية • وفى هذه الجامعة الإسلامية وضع أساس التقاليد الجامعية التى تسير عليها الجامعات فى الأمم الراقية كحفلة افتتاح الدراسة ، وحفلة التخرج وغيرهما ، وقد خرجت هذه الجامعة طائفة من العلماء الذين تفوقوا فى مختلف العلوم والفنون• وقد جذبت مساجد قرطبة الأوربيين الذى وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية ، ومن ثم ظهرت فيها طائفة من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين وغيرهم •

ومن معاهد العلم « الزاوية » وهى مأخوذة من الفعل انزوى ، بمعنى اتخذ زكنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد • وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء فأنشأوا لهم مساكن

ملحقة بالمسجد ، كما نشاهد ذلك ماثلا حتى الآن ببعض مساجد فاس والقاهرة • ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنيـــة صغيرة منفصلة فى جهات مختلفة من المدينة فى شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيهـــا المسلمون الصلوات الخمس ، ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقاتدراسية فى علوم الدين وما يتصل بالدين دن العلوم العقلية والنقلية • وفى القرن الثامن الهجرى انتشرت الزوايا فى المغرب وأنشئت بها كتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين ومبادىء العلوم ، الأمر الذى حدا بملوك بنى مرين إلى أن يطوروا هذه الكتاتيب إلى مدارس وكليات ليسهموا فى الحركة العلمية بجانب جامعة القرويين بفاس • وقد تطـورت الزوايا بالمغرب فى القرن التاسع الهجرى حين اشتدت وطأة النصـارى على المسلمين فى الأندلس ، وامتدت أطماعهم إلى احتلالالسواحل المغربية• ولما ضعفت الدولة عن الدفاع عن البلاد أخذت الزوايا تدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبى ، وبلغت أوج ازدهارها فى القرن العاشر الهجرى ، واستطاعت أن تجلس على العرش أسرة الشرفاء السعديين وأن تقف معهم جنبا إلى جنب فى الجهاد ضد النصارى المحتلين ، وقد وفقت هذه الزوايا إلى طردهم من بعض الثغور المغربية • ولم تكن هـــذه الزوايا بمعزل عن بعضها على الرغم من اختلاف مواقعها وإنما كان يجمع بينها التزاور فى حل المشكلات الاجتماعية •

ولم يكن « الرباط » يقل أهمية عن المسجد والزاوية من حيث كونه مكانا تتسع منه الدعوة إلى الإسلام وينمو النشاط العلمى • فقـــد كانت حدود العالم الإسلامى فى بعض جهاتها معرضة للخطر من قبلالأعداء، ولكى يحمى المسلمون أنفسهم من إغاراتهم المتعددة أقاموا الحصون فى بعض المدن الواقعة عند التخوم • وكان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة يلجأون إلى هذه الثغور لاتفرغ للدرس والبحث • ومما زاد فى اتساع الحركة العلمية هناك أن الخلفاء كانوا يختارون القضاة بالذات لقيادة الجهاد فى تلك الثغور • ويمتاز الرباط بطابعه الحربى بالإضـــافة

إلى وظائفه الدينية من العبادة وتلاوة القرآن والتفقه فى الدين ، وهو بذلك لا يختلف عن « الرابطـة » إلا من حيث كونها تبتـــدىء حيث ينتهى فتجعل هدفها الأول العبادة وتحصيل العلم ، وتهيىء المرابطين فيها بعد ذلك للجهاد ، على ما نجده فى رابطة عبد الله بن ياسين الجزولى جنوب المغرب ، وقد اجتمع فى هذه الرابطة نحـو ألف من رجال قبيلة صنهاجة المغربية فكان عبد الله يعلمهم أمور الدين أولا ثم أمور الجهاد فى سبيل نشر الدين الحنيف ٠ وقد تطور أمر عبد الله وتلاميذه إلى أن أسسوا دولة المرابطين التى وحدت المغرب وعبرت إلى الأندلس لتدافع عنها ضد الهجمات المسيحية العنيفة وتمد فى عمرها قرونا أخرى ٠

وانتشرت « المدارس » فى العصر السلجوقى ،وقام نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ ــ ٤٨٥ هـ) بتأسيس المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه فى بغداد ونيسابور وتعرف كل منهمـا باسم المدرسة النظامية ، كما أسس نظام الملك المدرسة الحنفيـة فى بغداد ٠ وكان الإمام الغزالى يقوم بالتدريس فى المدرسة النظـامية ببغداد ثم فى نيسابور فى أواخر القرن الخامس الهجرى ٠ ولما زار السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك بغداد سنة ٤٧٩ هـ زار الوزير المدرسة النظامية وجلس فى خزانة كتبها وطالع بعض الكتب وألقى على الطلاب درسا فى الحديث وأملى عليهم جزءا آخر ،كما أجرى هذا الوزير الجرايات والمخصصات المالية على مدارسه ٠ وفى عصرى نور الدين محمود وخلفه الناصر صلاح الدين انتشرت المدارس فى الشام وفلسطين انتشـارا ملحوظا وكانت تدرس المذاهب الفقهية وسائر العلوم الأخرى المتعلقـة بالقرآن والحديث واللغة ٠٠ وغيرها ، وكانت معظم هذه المدارس تضم مكتبات عامرة بلغ بعضها عشرات الألوف من المجلدات ٠

وقد اهتم المسلمون بنشر العلوم الطبية فأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات و « البيمارستانات » ودعوا إلى عقـد المؤتمرات الطبيـة

التى يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد فى موسم الحج ، حيثيعرضون نتائج أبحاثهم كما يعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية • وقد أصبحت بغداد فى الشرق وقرطبة فى الغرب من أهممراكز الثقافة الطبية الإسلامية • وقد وضع بعض الخلفاء والسلاطين والأمراء فى المساجد خزائن للأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباءلإسعافالمصلين، وبنوا البيمارستانات للمرضى وأباحوها للناس من غير تمييز فى الأديان والمذاهب وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل (١٤) •

وكانت « المكتبات » و « دور الحكمة » مراكز إشعاع أخرى للثقافة الإسلامية فعندما نشطت حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى ، وتقدمت صناعة الورق ، تبع ذلك ظهور كثير من الوراقين العرب الذين يقومون بنسخ الكتب ، واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيهـــا للتزود من العلم فكثرت المكتبات التى تزخر بالكتب الدينية والعلميـــة والأدبية وغيرها • وقد عمل الخلفاء العباسيون على إمداد بيت الحكمة — الذى وضع هارون الرشيد أساسه — بمختلف الكتب ، وظلت هـذه الخزانة قائمة حتى استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ • وقد أبيح للناس كافة الانتفاع بهذه الدور والمكتبات وأخذ ما يحتاجونه من مواد وأقلام وأوراق دون مقابل • وكان « الوقف » الاسلامى عاملا مهما فى إغناء هذه المؤسسات بالكتب والمواد وتمكينها من أداء خدماتها علىأحسن وجــه (١٥) •

---

(١٤) انظر : نور الدين محمود للمؤلف ص ١١٣ — ١١٤ للاطلاع على طبيعة العمل والخدمات فى احدى البيمارستانات الكبيرة فى دمشق .

(١٥) د . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ٤/٤٢١ — ٤٣٣ حيث يقدم عرضا مسهبا عن المراكز الثقافية والتربويـــة ومنها اختصرت الفقرات الخاصة بالموضوع .

(٧)

والآن ، ما هى الوظائف الأساسية التى نفذتها الحضارة الإسلامية على مستوى العالم ؟ ما هو الدور الذى لعبته فى الصيرورة الحضارية الشاملة للتاريخ البشرى ؟ •

لقد امتد (الفعل الحضارى الإسلامى) لكى يغطى اتجاهات ثلاثة انضفرت فى نهاية الأمر لكى تعزز الوجود الحضارى الإسلامى وتغنيه من جهة ، ولكى ترفد مجرى الحضارات البشرية بالعطاء المتنوع الواحد من جهة أخرى •

فأما أولى هذه الاتجاهات فتتمثل فى احترام الحضارة الإسلامية للتراث الحضارى البشرى الذى سبقها وعاصرها •• ولم يكن العقل الإسلامى الجديد بالذى يتشنج فى دائرة الذات وينقفل على حدود الأنا •• بل لقد علمته العقيدة التى أعادت تشكيله تقاليد الانفتاح المرن على كل حضارة أو إنجاز ما دام أنه قد يتضمن جانبا من الحكمة التى يتحرق هذا العقل بحثا عنها •• ولقد أصبحت هذه التقاليد بالنسبة إليه ممارسات يومية ، وعادات سائدة ، امتدت لكى تغطى مسيرته الطويلة •

لم يكن هذا (العقل) يرفض معطيات (الغير) ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن يتقبلها بالكلية •• لقد كان يملك فى تركيبه الخاص ، ومن خلال منظوره العقيدى ، المقاييس الدقيقة والموازين العادلة التى يمرر من خلال تلك المعطيات فيعرف جيدا ما يأخذ ، ويعرف جيدا ما يدع ••

إنه كان يمارس عملية بناء الذات الحضارية ، مستفيدا إلى أقصى حد ، من خبرات الآخرين ، ولكن لم يحدث أبدا أن أقحم فى مجرى التحقق الكبير هذا عناصر وأجساما غريبة لا تملك القدرة على

الانسجام مع نسيج الحضارة الجديد والتناغم مـع حركة نولها وهو يروح ويجئ بإيقاع ، متناسق واحد ..

كل الحضارات البشرية ، سواء انبثقت عن رؤية دينية ، أم موقف وضعى ... صاغها المؤمنون أم صنعها الكفار .. كانت تجد فى حضارة الإسلام صدرا رحبا .. ولكن أيا من عناصرها ما كان يسمح له بالدخول ما لم يكن يحمـل جواز السفر الذى يتيح له أن يصل إلى هناك بالأسلوب المشروع ..

كل الحضارات العالمية : يونانية ورومانية وبيزنطية وهللينيـة وفارسية وهندية وتركية وصينية وتراث الجماعات والشـعوب التى عاشت فى المنطقة : آرامية ونبطية وقبطية وفينيقية .. إلى آخره . . كانت — جميعـا — بمثابة حقـول مفتـوحة جال فى أطرافها العقل الإسلامى ، فأخذ ورفض ، وانتقى ومحص واختبر ، وعزل واستبعـد وفصل .. وعرف ، وهو يتجول عبر هذه الحقول الشاسعة ، ما الذى ينسجم ونبعه الصاعد ويزيده دما وحياة ، وما الذى يحمل جراثيـم المرض والهزال ، والدم الأزرق الفاسد ، فكان يعرف جيـدا كيف يرفض هـذا ويأخـذ ذاك .

لم يكن مجرد اقتباس ، ولكنه هضم وتمثل وتطعيم مرسوم هـدفه الخروج على الناس بألف نوع من الفاكهة والثمار .. مختلفة الأشكال والطعوم ولكنها تسقى بماء واحد ..

إن هـذا الموقف الحضارى المتبصر ، المرن ، الموزون . . حقق مردوده الإيجابى الفعال ليس على مستوى الحضارة الإسلامية فحسب، ولكن عبر نطاق الحضارات جميعا .. العناصر الطيبة الصالحة فى هـذه الحضارات بعبارة أدق .. وهو خلال هـذا كله إنمـا كان يؤدى وظيفة لم تلعبها من قبل حضارة أخرى بهذه السعة والعمق : حمـاية التراث

الحضـــارى البشرى وتمكينـــه من البقـــاء بمواجهة تحديات الســـقوط والنسيان والفناء ..

يقول لويس يونغ « وهكذا أصبح المسلمون فى المناطق الجـــديدة لامبراطوريتهم على صلة تامة بحضارة واسعة تضم بين ظهرانيهـــا أدبا واسعا مكتوبا باليونانية والسريانية والبهلوية ، إلى جانب استيعـــاب للعلوم لم يكن لعرب الجاهلية أن يعرفوه ... لقد صبت جداول كثيرة فى نهر الحضارة الإسلامية ، ولعل أشدها تأثيرا رافدالحضارةالهيلينية، ثم الحضـــارة الفارسية التى أثرت فى الفـــكر الســـياسى والعـــادات الاجتماعية ، والحضارة الهندية التى أسهمت فى علوم الطب والفلـــك وبخاصة فى الرياضيات حيث أخذ العرب الأرقام الهندية . وقد أخذ العرب بعض التنظيمات الإدارية والسياسية التى كانت قائمة فى البلدان المفتوحة مثل (ديوان الحسبة) الذى هو امتداد للمؤسسة البيزنطية ، وفكرة (المصلحة العامة) التى هى امتداد لـــ Utilitas Publica فى التشريع الرومانى . كما أخذوا بعض المناصب السياســية مثـــل (الوزير) من الفرس .. ولقد فتح (العرب) أبوابهم على اتســـاعها لاستيعاب المعارف والثقافات القديمة من يونانية وغيرها مما قاد إلى نهضة كبرى فى مجال الترجمة .. ولعل من أهم دوافع الترجمة هو حث الإسلام على المعرفة ودعوته لتلقى العلم وجعـــل ذلك أمنية عظمى فى الحياة .. وقد تعرف المسلمون من خلال الترجمة على جوهر الفلســـفة القديمة والطب والعلوم الطبيعية اليونانية .. وهكذا كان مجـــال الترجمة واسعا ، حتى أن الكثير من الأعمال اليونانية وصلت إلى أوربا عن طريق الترجمة العربية فقط لأن النسخ انيونانية الأصلية فقدت .. إن تطوير المسلمين للتراث اليونانى هو واحـــد من أهم حلقات التاريخ

الثقافى فى العالم . وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة » (١٦) ..

ويقول غرونباوم « .. وكانت نتيجة هذه الخصومة والتنازع أن خرجت إمكانيات الإسلام الفلسفية والعملية إلى حيز الفعل . . وعبروا عنها من جديد فى صيغ مقبولة لدى ممثلى التقاليد الأقدم عهدا التى كان على الحضارة الدينية الجديدة أن تتعامل معها . فالتفكير الإدارى والسياسى من فارس،والطرائق الهلنيستية فى التفلسف والعلم الدنيوى ، والطب والرياضيات من الهند ، كل ذلك قد تمثلوه واستوعبوه بغير عناء . وإن التعريب اللغوى لكل ما اقتبسوه من هذه الأمور ساعد على تمثلها . وحينما توضع وجهة النظر الأجنبية فى داخل إطار إسلامى وبتعابير إسلامية يكون الإحساس بها إسلاميا صادقا . ومن جهة أخرى فإن التوضيح التدريجى بحقائق الدين الأولى ولما تشتمل عليه من ملابسات ثقافية ، أخذ يساعد على توسيع الأساس الذى يقوم عليه التبادل بين الحضارات . وهكذا نجد أن ازدهار الحضارة العباسية بين ٧٦٠ — ٨٤٠م إنما يمثل امتزاجا ثانيا للحضارة الإسلامية، وقد فسحوا المجال فيها التقاليد (المحلية) التى استمدوا جزءا منها من الكتب ، إلا أن معظمها دخل فى التركيب الجديد عن سبيل حقائق التعايش الفعلى .. » (١٧) .

ويقول دى لاسى أوليرى « لقد أصبح العرب ، بحكم كونهم حكاما لسوريا ، على اتصال بثقافة متطورة إلى حد بعيد ، استخدموها فى عدة مجالات : فى بناء المجتمع والنظام الاجتماعى بشكل عام ، وفى الفنون والحرف ، وفى الحياة العقلية . وكان الأثر الإغريقى وثيق

(١٦) العرب وأوربا ، ص ٣٤ — ٣٦ (مقتطفات) .
(١٧) الوحدة والتنوع فى الحضارة الاسلامية ، تاليف عدد من المستشرقين ، تحرير جى . ئى . غروبناوم ص ٣٨ — ٣٩ .

الصلة بهم . إلا أن العنصر الفارسى كان أوثق صلة ••• وهكذا فقد كانت هذه الفترة (الراشدية والأموية) فترة إحياء دائم إلى حد ما ، أخذت خلالها العناصر المختلفة عن العرب لغة جديدة ودينا جديدا ، وتساوت الآن فى ظل الخلافة والتحمت فيما بينها فى حياة مشتركة • ومهما بلغت شدة الخلافات الطائفية والسياسية فيما بعد ، فقد ظلت سيادة الإسلام تنشر لواءها مدة طويلة ، ولا تزال كذلك إلى حد كبير وتتمتع بحياة مشتركة ، بمعنى أنه يوجد تفهم واع بين مختلف الأنحاء • وهكذا استطاع التأثير الفكرى أو الدينى أن ينتقل بسرعة من أحد الأطراف إلى الطرف الآخر ، كما أن واجب الحج إلى مكة قد أدى الكثير فى تفتح الحياة المشتركة فى نفوس هذه الجماعة وترويج الحوار بين مختلف أجزاء العالم الإسلامى •• فالحياة العامة فى الإسلام مبنية إلى حد كبير على استعمال اللغة العربية كوسيلة فى الحياة العامة •• وكان هذا ذا أثر فى منتهى الفعالية قبل إدخال عناصر كبرى من الأتراك والهنود الذين لم يصبحوا قط من الناطقين بالعربية ، فكان هذا السبب هو الذى جعل الجماعة الإسلامية الناطقة بالعربية وسيلة مناسبة للنقل الثقافى ••• » [18] •

ويقول « كانت أولى وأكثر دلائل التكيف الجديد فى الفكر الإسلامى هو الإنتاج المتزايد فى ترجمة الكتب التى تعالج المواضيع الفلسفية والعلمية إلى العربية • وكانت حصيلة ثمانين عاما من بعد سقوط الأمويين امتلاك العالم الناطق بالعربية نسخا عربية لأكثر كتب أرسطو طاليس وكبار شراح الأفلاطونية المحدثة وبعض آثر أفلاطون ، والقسم الأعظم من أعمال جالينوس ، ومؤلفات أخرى فى الطب

(١٨) الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ، ص ٦٢ ، ٧٦ — ٧٧ •

وشروحها ، وكذلك بعض الكتب اليونانية العلمية الأخرى وكتبا هندية وفارسية عـديدة ••• » [19] •

ويقول غوستاف لوبون « كلما أمعنا فى درس حضـارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنـا حقائق جديدة وآفاق واسعة ، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل فى معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين ، وأن جامعات الغرب لم تعرف لهـا ، مـدة خمسة قرون ، موردا علميا سـوى مؤلفاتهم ، وأنهم هم الذين مدنوا أوربا مادة وعقلا وأخلاقا • وتأثير العرب عظيم فى الغرب ، وهو فى الشرق أشـد وأقوى » [20] •

ويقول « الحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليونانى القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ، وبفضل هـذه الترجمة أطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها ككتاب أبولونيوس فى المخروطات وشروح جالينوس فى الأمراض السارية ورسالة أرسطو فى الحجارة ، الخ • وإنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لهـا بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان ، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة ، اعترافا أبديا ، قال مسيو ليبرى (لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضـة أوربة فى الآداب عـدة قرون) • وعرب الأندلس وحدهم ، إذن ، هم الذين صانوا العـلوم والآداب التى أهملت فى كل مـكان ، حتى فى القسطنطينية ، ولم يكن فى العالم فى ذلك الزمن بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية ، وذلك خلا الشرق الإسـلامى طبعا ، وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم فى الحقيقة

---

(١٩) نفسه ص ٩٣
(٢٠) حضارة العرب ، الطبعة الثالثة ص ٢٦

•• ولم يظهر فى أوربا ، قبل القرن الخامس عشر من الميلاد ، عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب وعلى كتب العرب وحدها عول روجر بيكون ونيانورد البيزى وأرنود الفيلنوف وريمون لول وسان توما والبرت الكبير والأذفونش العاشر القشتالى •• الخ » [٢١] •

وجاء فى كتاب (الحضارة الأوربية سياسية واجتماعية وثقافية) لمؤلفيه آساتذة الفلسفة جيمس وستفال توسون وفرانكلين شارلز بام وفان نوستراند « فى خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمى على التقريب • وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه •• وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوربا الغربية فى أواخر القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر •• وتسابق الرجال من ذوى العقول اليقظى إلى بلارمة وطليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية مثل أديلارد أوف بات ودانيال أوف مورلى وروجر أوف هيرفورد واسكندر نكوام • وكانت رسالة اديلارد أوف بات ودانيال أوف مورلى وروجر أوف هيرفورد واسكندر نكوام • وكانت رسالة اديلارد أوف بات فى المسائل الطبيعية أول مؤلف علمى أنتجته أوربا الغربية فى القرون الوسطى ، وقضى بعض الطلاب سنين عدة فى أسبانيا ثم قضوا أعمارهم كلها فى هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية •• وعلى هذا النحو كانت أوربا قد استولت فى مستهل القرن الثالث عشر محصول العلم الإغريقى والعربى بحذافيره •• »[٢٢] •

وليست هذه سوى نماذج ، وهنالك غيرها مئات الشواهد بل ألوفها ••

---

(٢١) نفسه ص ٥٦٨ ــ ٥٦٩

(٢٢) عباس محمود العقاد : اثر العرب فى الحضارة الاوربية ، الطبعة الثانية ، ص ٤٥ ــ ٤٦

لكن الحضارة الإسلامية لم تقف عند هذا الحـــــد .. كانت هنالك وظيفة أخرى تنتظرها ، وتعد بمثابة النتيجة المحتومة لشروط قد توفرت سلفا ، ولقد أحسن تنفيذها حقا الإضافة والتجديد والإغنـــــاء وإعادة التركيب لمعطيات حضارية كانت بأمس الحاجة للتغيير والتبديل وتوسيع نطاق البناء ، بعد إذ لم تعد صالحة تماما لحاجات العصر الجديد ومطالب الإنسان المؤمن الجديد .

إن كثيرا من القيم الحضارية القديمة كانت يومها قد أصبحت أمرا (رجعيا) وكانت حركة الإسلام (التقــدمية) تقضى بضرورة تغييرها واستبدالها بعناصر جديدة أكثر صلاحية وانسجاما مع إيقاع الحياة التى صاغها الإسلام .

ليس هذا فحسب ، بل إن العقل الإســــلامى المتحضر قدر على أن يكتشف ويبتكر عناصر وقيما حضارية جديدة بالكلية ، وأن يقدمهـــا للعالم ثمارا يانعة لجهده الخاص ، فليس كل ما صنعه المسلمون هوحماية التراث الحضارى القديم ، وإعادة شرحه وتفسيره ، وإضــــافة بعض الشروح والهوامش عليه .. وكأن ذلك التراث هو الطريق الوحيد لكل إبداع حضارى ، وكأنه حتمية مقفلة لن يستطيع عقـــل أن يشذ على مواضعاتها ويخرج عن حدودها المرسومة ..

لقد أبدع العقل الإسلامى ، ابتداء ، قيما جديدة ، وابتكر واكتشف الكثير الكثير من المعطيات والنظم الحضارية التى كانت بمثابة الأسس التي بنت عليها فيما بعد حضارات أخرى فى مشارق الأرض ومغاربها .

وهكذا فإن الدور (الإغنائى) للحضارة الإســــلامية يتوجب أن يعالج من خلال هذا المنظور الواسع ، وألا يغمط حقه وهو يقلص ، لهذا السبب أو ذاك ، لكى يغدو مجرد تابع أمين وذكى لمعلمى اليونان القدماء، قدير على فهمهم وطاعتهم وشرح غوامضهم .. وليس ثمة وراء هذا أية

محاولة النقض والهدم والتبديل •• أو لإبداع قيم ومعطيات وتقاليد جديدة لا علاقة لها ألبتة بحضارات الأقدمين • ولقد كانت الرؤيةالجديدة قديرة على الخلق والابتكار وكان العقل الإسلامى جديرا بالمهمة • • وهكذا صنع الذى صنع •

والشهادات عن دور الحضارة الإسلامية فى إغناء الحضارات البشرية ، والإضافة عليها ، وارتياد الآفاق المجهولة ، واكتشاف القيم المعرفية والتجريبية الجديدة ، كثيرة غزيرة •• صدرت عن كتاب ودارسين وعلماء وأكاديميين شرقا وغربا ، بحيث يصعب على المرء أيها يأخذ وأيها يدع •• ولكن لا بأس فى اقتباس نماذج فحسب من هذا الخضم العميق لكى تكون بمثابة مؤشرات على درب العطاء الطويل •• لويس يونغ . « إن تطوير المسلمين للتراث اليونانى هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافى فى العالم • وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة • يجب أن لا تغيب عن ذهننا — إذ نناقش ونقيم الحضارة الإسلامية — تلك الأفكار المبدعة التى جاءت من الجزيرة العربية مع الإسلام وقبله ، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليونانى فيصنعوا من ذلك لونا جديدا سباقا فريدا » (٣٢) •

« ما الذى تركته حضارة العرب والمسلمين فى أوربا ؟ لقد تركت بصماتها على جميع المستويات ابتداء بالفولكلور كراقصى الموريش الإنكليز الذين هم فى الحقيقة قناع لراقصى البربر ،وانتهاءبالعلوم حيث يستخدم ملاحو الفضاء اصطلاحات عربية مثل السمت Asimuth وسمت الرأس Senith . وهناك فى خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليه أسماء لبعض العلماء العرب : كالزركلى والبتانى وأبى الفداء •

(٣٢) العرب واوربا ص ٣٦

ان أشـيـاء كثـيرة لا يزال على « الغـرب أن يتعلمهـا من الحضـارة الإسلامية » (٢٤) •

سارتون : « حقق المسلمون، عباقرة الشرق، أعظم المآثر فى القرون الوسطى • فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مـادة باللغة العربية • وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهـاية القـرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية الجنس البشرى ، حتى لقـد كان ينبغى لأى كان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحـدث صورها أن يتعلم اللغة العربية • ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها » (٢٥) •

سيدبو : « تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعـارف الثقـافية فى التاريخ • وظهرت منتوجـات ومصنوعات متعددة واختراعات ثمينة تشهد بالنشاط الذهنى المدهش فى هذا العصر • وجميع ذلك تأثرت به أوربا بحيث يؤكد القول إن العـرب كانوا أساتذتها فى جميع فروع المعرفة • لقـد حاولنا أن نقلل من شأن العرب • ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميـع الأرجاء • وليس من مفر أمامنا إلا أن نردلهم ما يستحقون منعدل إن عاجلاأوآجلا» (٢٦) •

دريبر : « ينبغى على أن أنعى على الطريقة الرتيبة التى تحايل بها الأدب الأوربى ليخفى عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا • أما هذه المآثر فإنها على اليقين سوف لا تظل كثيرا بعد الآن مخفية عنالأنظار • إن الجور المبنى على الحقد الدينى والغرور الوطنى لا يمكن أن يستمر إلى الأبد » (٢٧) •

نيكلسون : « إن أعمال العرب العلمية اتصفت بالدقة وسعة الأفق • وقد استمد منها العلم الحديث ــ بكل ما تحمل هـذه العبارة من معان ــ مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض » (٢٨) •

---

(٢٤) نفسه ص ١٠

(٢٥ ــ ٢٨) جلال مظهر : أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، الصفحات ١٧٠ ــ ١٧١ ، ١٩٢

وثمة الاتجاه الثالث الذى مارسته الحضارة الإسلامية : النقل الجغرافى والانتشار ..

إذا كانت الحضارة الإسلامية فى الأولى قد مارست انفتاحا عقلانيا على تراث الحضارات السابقة ، وإذا كانت فى الثانية قد حورت فيها وفسرت وشرحت وأضافت وابتكرت وأغنت .. فإنها ها هنا تمارس انفتاحا إنسانيا ، يتجاوز تقاليد الانغلاق على الذات ، ويرفض الأنانية والاستعلاء ..

لقد فتح المسلمون صدورهم لكل طالب علم ، أية كانت الجهة التى قدم منها وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصاريعها لكى يخرج منها الضوء الجديد فيغطى قارات العالم ويلفها بالنور .. لقد وضعوا كشوفهم ومعطياتهم أمام الجميع ونادوا بأعلى صوت : أن من يريد أن يأخذ فإن الطريق مفتوح .. لقد كان عطاؤهم — بحق — غير مجذوذ ..

إن غوستاف لوبون يقولها بصراحة : « لقد كان تأثير العرب فى الغرب عظيما الغاية ، فأوربا مدينة للعرب بحضارتها . ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب فى الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوربا عندما أدخل العرب الحضارة إليها » (٢٩) .. ويعلنها لكليربكلمات واضحة « .. نستطيع أن ندرك أية ثورة فكرية بعثتها فى الغرب حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وأية فائدة جناها العلماء اللاتين منها ، فكانت هذه الترجمة أداة جوهرية للتقدم وانتشارا للعلم العربى المنتعش بجانب الغرب » (٣٠) . ولا زلنا نذكر كلمة مسيو ايبرى التى مرت بنا قبل قليل « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا فى الآداب عدة قرون » .

كلنا يعرف الجسور التى انتقلت عليها معطياتنا الحضارية إلى عالم

(٢٩) نفسه ص ١٧٠ — ١٧١
(٣٠) نفسه ص ١٩٢

الغرب الغارق – يومها – فى سباته العميق •• اسبانيا •• جزر البحر المتوسط •• شواطىء آسيا وأفريقيا •• والأناضول •• فضلا عن تجارب الاحتكاك التاريخى البشرى ، فى السلم والحرب بين الأمة الإسلامية وشعوب الغرب •• « لقد عبرت الحضارة العربية إلى أوربا – يقول لويس يونغ – وتركت آثارها من خلال ثلاثة جسور هى بترتيب الأهمية : اسبانيا وصقلية وسوريا •• وتبقى اسبانيا أهم طريق مرت عبره الحضارة العربية إلى أوربا ••• إن التأثير العربى الدائم فى اسبانيا ثقافيا ولغويا ، لم يكن فقط بسبب تواجد السلطة العربية فى هذه البلاد زهاء ثمانية قرون ، فإن الحضارة العربية تجاوزت اسبانيا إلى أوربا حيث غدت اسبانيا منطاقا لترجمات فى الفلسفة والعلوم العربية على نطاق واسع ، وذلك فى مدينة طليطلة التى استعادها المسيحيون عام ١٠٨٥م• وكانت الثقافة العربية تنتقل كذلك إلى أوربا عن طريق الباحثين إلى جنوب فرنسا وتولوز ومرسيليا وناربون ومونبليه • وشهد القرن العاشر انتقال العلوم العربية بصورة مبكرة إلى اللورين مما جعلها مركزا ثقافيا هاما مدة قرنين • كما غدت مدن أخرى مراكز للتأثير العربى الحضارى وهى ليبزج وكولون وغيرهما ومن اللورين انتقلت الثقافة العربية إلى أجزاء أخرى من ألمانيا وإلى انكلترا •

« وكانت صقلية الجسر الثانى الذى اجتازته الحضارة العربية فى طريقها إلى أوربا •• ولقد شهد القرن الثانى عشر ظهور حضارة مسيحية إسلامية صقلية نتيجة لسياسة اللين التى اتبعها النورمانديون فى صقلية ، ولسوء الحظ فإن هذه الظاهرة من التعاون الحضارى فريدة فى تاريخ العلاقات بين العرب وأوربا • وقد أخذ النورمانديون عن العرب (تقاليدهم) وآدابهم وعلومهم واستخدمت اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب اللاتينية واليونانية وضربت النقود على النمط العربى » ••

« وكانت سورية الجسر الثالث للحضارة العربية العابرة إلى أوربا

خلال الحروب الصليبية ... فى المجالات التجارية والعسكرية والزراعية والصناعية ، أما فى مجالات العلوم (الصرفة) والفلسفة فلم يكن لسورية كبير تأثير فى نقل الحضارة العربية إلى أوربا . إلى جانب ذلك فإن الأدب الأوربى اغتنى بما نقلته الحملات الصليبية إلى أوربا من الفن القصصى والأسطورى للحضارتين البيزنطية والعربية . وكان للتجار الفضل الكبير فى نقل الثقافة الإسلامية إلى أوربا عن طريق سورية فى زمن الصليبيين « فقد كانت الطرق التجارية الإسلامية تنطلق من سوريا والبحر الأسود ، وبعد ذلك صوب المدن التجارية الإيطالية مثل جنوة ولوكا والبندقية ، وكانت البضائع تنقل عبر جبال الألب إلى المراكز التجارية الكبرى فى أوربا مثل أوكسبورغ ونورنبرغ وأولم وريجنسبرغ وغيرها . أما الطرق التجارية الشرقية فكانت تنطلق من المناطق الشرقية للبلاد الإسلامية عبر روسيا وإلى بلدان شرق أوربا » (٣١) ..

ومهما يكن من أمر فإن الحضارة الإسلامية مارست وظيفتها فى ميدان النشر الجغرافى بالقدرة نفسها على الفاعلية والعطاء التى مارست بها وظيفتيها السابقتين .. لقد كانت فى كل الأحوال تعمل من أجل الإنسان .

وثمة ما يجب أن يقال ها هنا .. إننا لو مارسنا تحليلا لحجم الدور الذى لعبه الإسلام (حضاريا) مقارنا بالأدوار التى لعبتها المذاهب والحضارات الأخرى ، سواء أكانت وضعية أم دينية محرفة . . فإننا سنجد المسافة واسعة ممتدة يصعب تقريبها ، لا سيما إذا وضعنا فى الحسبان الوظائف الكبرى الثلاث التى مارستها حضارة الإسلام) .

انه لا الحضارات السومرية والبابلية والمصرية ، ولا الحضارات الإغريقية واللاتينية والبيزنطية والهلينية ، ولا الحضارات الفارسية والهندية والصينية ، على ما قدمته جميعا من عطاء زاخر ، بقادرة على

---

(٣١) العرب واوربا ، مقتطفات من الصفحات ١١٩ — ١٢٣

أن تسامت هـــذا الدور •• وإنه لا الفلسفات اليونانية والهندية ، ولا المذاهب الوضعية الأوربية منذ عهودالنهضة والتنوير وحتى طوباويات الاشتراكيين الفرنسيين والإنكليز ووجوديات هيدجر وكيركغارد وسارتر وكامى ، ومثالية هيغل ، ومادية ماركس وانجلز • بقادرة أيضا على أن تسامت الإسلام فى قدرته ، ليس فقط على تكوين الحضــارة وإنمائها ولكن أيضا فى تحويل القيم والأفكار إلى واقع منظور ، وتجربة معاشة، وخبرات تتخلق حية نامية فى مساحات الزمان والمكان ••

أما الحضارة الغربية المعاصرة ، بأجنحتها كافة ، فيكفيها جنوحا فى الشخصية وانحسارا فى الدور الوظيفى ما تعانيه من اختلال محزن فى التوازن بين الثنائيات • الأمر الذى استطاع الإسلام التحقق به بشكل يثير الدهشة والإعجاب • •

إن البريق الذى يشع من معطيــات الحضارة الغربيــــة فيبهر الأبصار •• لن يتجاوز جلدها ــ بحال ــ إلى صميم التركيبالبيولوجى والسايكولوجى لشخصية هذه الحضارة الجانحة ••

(٨)

ونريد ـــ أخيرا ـــ ومن خلال ما تضمنه هـــذا البحث من معطيات، أن نؤشر على الخصائص الأساسية للحضارة الإســـــلامية ، الجوهر الذى يكمن خلف المظاهر والأشكال المتغيرة ، أو الذى يتمخض عن تفاعلها الدائم ويتبلور عبر تحققها المستمر •

إنها ـــ فى البدء ـــ حضارة إيمانية ، بمعنى أنها تنبثق عن أصـــول عقيدية مستمدة من منهج عمل إلهى •• دين قادم من السماء •• وإنهـــا ـــ بشكل من الأشكال ـــ تعبير متفرد عن ذلك اللقاء المرسوم بين السماء والأرض • وهى مهما تضمنت من أخطاء وانحرافات ، متعمدة أو غير متعمدة ، ومهما شذت وبعدت ـــ أحيـــانا ـــ عن مســـارها الأصيل ، عن كونها التعبير الصادق للمنطلق المستمد من الجذور ، المتوجـــــه صوب الهدف ، فإنها تظل فى نسيجها العام •• فى إيقاعها ، وصيرورتهـــــا ، وتوجهاتها ، ونبضها ، حضارة إيمانية لا تأسرها الأرض ، وتظل منتظرة الإشارة والهدى من السماء •

إنها بعبارة أخرى ـــ حضارة ملتزمة ، صاغها مجتمع ملتزم ••

فمن وراء ركام الأحداث والتغيرات السياسية والعسكرية التى شهدها تاريخنا عبر قرونه الطويلة ، ومن وراء قيام الدول والسلالات الحاكمة وسقوطها ، ومن وراء تأرجـــح القيادات العليـــا للحـــكومات الإسلامية بين التسيب والالتزام ، من وراء هـــــذا وذاك ، كان هناك مجتمـــع إسلامى ملتزم ظل على وفائه للعقيدة التى صنعته وأعطتـــه مكانا فى العالم ، وتمثله لقيمها وتعاليمها ، فى سعيه اليومى ، وممارساته المعاشية ، وعلاقاته الاجتماعية ، وأنشطته الثقافية ، ومعطياته الحضارية عمـــــوما •

ولئن دل هـــذا على شيء ، فإنما يدل على واقعية الإسلام وقدرته على التماس الدائم مع الحياة الاجتماعية والثقافية ، وتغطيتـه لسائر متطلبات النشاط متنوع الجوانب للإنسان المسلم • ولئن حـدث وشذ بعض الأفراد والقطاعات الاجتماعية عن التزامها التام أو النسبى بقيـم الاسلام وتعاليمه بين الحين والحين ، فجاء تعبيرها الحضارى ناقصا ، مشوها ، مبتورا ، أو مبحرا باتجاه مضاد للمجرى العام ، فان هـذه البقع السوداء المحدودة لم تكن لتغطى على المساحة البيضـاء الأوسع فى الحياة الإسلامية حيث التوحد مع أهداف الشريعة والالتزام بقيمها ومعطياتها • ومن ثم فإنها لا تعدو أن تكون بمثابة الاستثناء من القاعدة الأثقل والأوسع والأهم ، ولن يحكم على المجرى العام للحياة الإسلامية من خلال الزبد الموقوت الذى يطفو على وجهها بين الحين والحين •

وهى حضارة تتميز بتقابل فذ بين الأصالة والانفتاح ، بين القدرة على حماية الذات من التفكك والتغير والانحلال وبين الاسـتعداد الدائم لقبول القيم والخبرات من الغير وهضمها وتمثلها •

لقد تحرك المسلمون إلى العالم ، وعبر فترة قصيرة نسبيا من الزمن تمكنوا من صياغة حضارة تميزت بتلك الأصالة التى تستمد ديمومتها من تحصين الذات وعـدم الذوبان فى الكيانات الغريبة التى تدمر الشخصية الحضارية للأمة وتلغى ملامحها وسماتها • ولكنها لم تنغلق يوما على معطيـات الحضارات الأخرى ، بل فتحت صـدرها دونمـا عقـد ولا حساسيات ، على العالم الواسع ، وأخذت وتمثلت كل ما هو إيجـابى فعال فى بنية الحضارات الأخرى •

فمنذ اللحظات الأولى أخذ الإسلام على عاتقه مهمة تكوين جماعة مؤمنة متحضرة تعرف كيف تحقق التقـابل الفعال بين أصـالة الذات الحضارية وبين الانفتاح على خبرات الأمم والجماعات والشعوب •

ومعنى ذلك كله أن الحضارة الإسلامية كانت قديرة على الاستجابة للتحديات •• لا تنكمش دونها ، ولا تهرب إزاءها ، بل تقابلهاعبرمواجهة حوارية ، تخبرها جيدا ، تفككها إلى عناصرها الأولية ، تمتحن هـــذه العناصر ، تحيلها إلى تكوينهـــا الإسلامى ، وبنيتها الإيمانية الخاصة ، فتأخذ ما يتلاءم مع هـــذا التكوين ويمنحه القدرة على النمو والامتداد • وترفض ، وتبعد ، وتستثنى ما يعرقل حركة النمو ويضـــع فى طريقها العـــوائق والعثرات •

إن تاريخ الحضارة الإسلامية هو تاريخ صراع إيجـــابى فعال مع الحضارات الأخرى ، تاريخ سلسلة من التحديات والاستجابات الناجحة •• وقد كانت هـــذه الحضارة قديرة ، فى معظم الأحيان ، على تنويع أنماط الاستجابة بأكبر قدر من التكيف والمرونة وكانت النتيجة فى معظم الأحيان ، احتواء العناصر الإيجابية لدى الغير •• هضمها وتمثلهـــا ، وتحويلها إلى مادة بنائية فى صيرورة الحضارة الإسلاميـــة تعين على النمو ، والتنوع ، والغنى ، والامتـــداد •

وهى حضارة التوازن الفريد الذى يعد ملمحا من أهم ملامح هـــذه الحضاة وأكثرها خصوصية وارتباطا بشخصيتها الإسلامية •

التوازن فى كافة الاتجاهات وعلى كافة الجبهات •• إنه بأطرافه المتقابلة وثنائياته المتوافقة ، بمثابة السدى واللحمة ؛ هذا التوازن الذى يتصادى هنا وهناك ، فى النظرية والتطبيق على السواء •• إنه فى صميم فكر الإسلام وفى قلب صيرورته الحضارية •

إن القرآن الكريم يقولها بوضوح (وكذلك جعلناكم أمة وسطـــا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرســـول عليـــكم شهيدا) (٣٢) • والوسطية هنا ليست موقعا جغرافيا أو مكانا محددا من قـــارات العالم ،

---

(٣٢) سورة البقرة آية ١٤٣

ولكنه موقف عقيدى ، واستراتيجية عمل ، ورؤية نافذة لموقع الإنسان فى الكون والعالم •• إنه القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال •• ومن خلال هـذه القدرة يتحقق مفهـوم الشهادة على الناس ، لأنها تطل عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذى لا يميل ولا يجور •• تشرف عليهم وهى تتحرك على الصراط •• وهى تمسك بالميزان الحق الذى تزن به كل صغيرة وكبيرة فى هـذا العـالم فتميز بين الطيب والخبيث ، وتفرز الذهب من التراب وتبـين الحـق من البـاطل •

ورغم أن هذا التوازن قد تعرض ، على المستـوى التاريخى ، للتأرجح بين الحين والحين إلا أنه ، فى إطار التجربة الإسلامية ، يظل، من بين سائر التجارب الأخرى فى العالم ، أكثرها وضوحا وتألقا ••

إنها الحضـارة التى قدرت انطلاقا من رؤيتها هـذه ، على أن تجمع فى كل متناسق واحد : الظاهر والباطن ، والحضـور والغياب ، والمادة والروح ، والقدر والاختيار ، والضرورة والجمال ، والطبيعـة وما وراء الطبيعة ، والتراب والحركة ، والوحدة والتنوع والأخلاقيـة والنفعية ، والفردية والجماعية ، والعدل والحرية ، والوحى والتجريب ، والدنيا والآخرة ، والفناء والخلود •

وهذا يقودنا إلى ما يتمخض عن هـذه الخصيصة : الشموليـة التى تميزت بها حضارة الإسلام •• القدرة على التحقق بكافة الأنشطة، والامتداد الى كافة المناحى والتوغل فى نسيج الحياة والوجود ، ومتابعة كل ما من شأنه أن يهم الانسان •

وهكذا وجدنا بناة هـذه الحضارة يسعون فى الأرض لكى يمسوا كل قضية ، ويتعاملوا مع كل موقف ، ويركبوا ويبنوا من كل ما يقع تحت

أيديهم من حيثيات ومواد .. فما ثمة أمر مما يهم العقل ، أو الروح ،أو الجسد ، أو الحس ، أو الوجدان إلا قالوا فيه كلمتهم ، وقدموا ، حسب قدراتهم وإمكاناتهم يومها ، التعبير الحضارى المناسب .

لم ينكمشوا يوما إزاء هــــذا الجانب أو ذاك من جوانب الكون والعالم ، ولا انحسروا إزاء هذه المساحة أو تلك من سطح الوجود ، ولا هربوا أو فروا أمام معضلة من معضلاته .

إنهـــا الحضارة التى تحركت لكى تقـــدم طعاما أكثر مادة غذائية صالحة للعقل والجسد والروح ، فى وقت واحـــد ، وكانت فى هـــــذه المجالات الثلاثةتملك الخبرة التى تمكنها من أنتعد أجود صنوف الطعام.

وإذا كانت معظم الحضـــارات البشرية التى شهدها التاريخ ترمى بثقلها صوب هذا الجانب أو ذاك من جوانب السعىالبشرى فى الأرض، فتميـــل لأن تكون عقلية ، أو حسية ، أو روحية .. إلى آخره وتصب اهتمامها على هـــذه المساحة أو تلك من مساحات التجربة الحيـــوية ، فإنه فى حضارة الإسلام ليس ثمة جنوح فى هذا الاتجاه أو ذاك .

كل ما كان ينبض فى نسيج العالم والحياة والوجود كان يجـــــد صداه المناسب فى نبض الحضارة الإســـــلامية التى كانت قديرة على تنفيذ حوار متكافىء بين الأنشطة البشرية وبين ظواهر الوجود وحقائقه ومعطيـــاته كافة .

ثم هى ، بسبب هذه الخصائص جميعا ، حضارة إنسانية ، بمعنى أنها جاءت لكى تتعامل مع الإنسان وتكون بحجمه ، وتستجيب لمطامحه ومنازعه ودوافعه واهتماماته وأشواقه ، وبمعنى أنها لم تضع بينهـــا وبين الإنسان أسلاكا شائكة باسم العرقية حينا ، أو الطبقية حينـــا ثانيا ، أو المذهبيـــة حينا ثالثا ، أو الجغرافية حينا رابعا ، بل إنها لم

تضع هـذه الأسلاك حتى باسم الدين رغم أنها حضارة منبثقة عن الدين نفسه ! •• وبمعنى أنها وهبت نفسها للإنسان أيا كان فى الزمن والمكان دون أن تمارس خطيئة الانغلاق على الذات •

ولقد رأينا كيف أنه ما من حضارة فى تاريخ العالم قدرت عـلى تجاوز هـــذه الحساسيات جميعا ، ومخاطبة الإنسان ، هـذا الكائن المتفرد ، من حيث هو إنسان كهذه الحضارة المنبثقة عن هذا الدين ! •

وقد سبق أن مر بنا ونحن نتحدث عن وظائف الحضارة الإسلامية كيف أن هـــذه الحضارة مارست انفتاحا إنسانيا ، يتجاوز تقاليـــد الانغلاق على الذات ويرفض الأنانية والاستعلاء •

لقد فتح المسلمون صدورهم وعقولهم لكل طالب علم ، أية كانت الجهة التى قدم منها ، وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصاريعها لكى يخرج منها الضوء الجديد فيغطى قارات العالم القديم ويلفها بالنور •• لقد وضعوا كشوفهم وخبراتهم أمام الجميع ، ونادوا بأعلى صوت : إن من يريد أن يأخذ فإن الطريق مفتوح •• لقد كان عطاؤهم — بحق — غير مجـــذوذ •

ربما يكون فى هـــذا الإسراف فى أخلاقية العطاء ما يثير نقـــدا أو اعتراضا ، إذ كيف تسلم خصمك الســـلاح الذى سيقتلك به ، وفى الحضارات جوانب مما قد يتحول إلى سلاح يقتل فعلا ؟ •

إن الغربيين فى قرننا هـــذا صنعوا القنبلة الذرية ، وأعقبوها بالهيدروجينية فالنيوترونية •• إلى آخره •• ولم يسمحوا لأنفسهـــم قط أن يعطوا معادلاتها الرياضية والفيزيائية لأيدى وعقـــول الأمم الأخرى ، اللهم إلا من يحسبونه امتدادا لهم •

أفما كان أولى بالمسلمين أن يتوقفوا بعض الشيء ، ويراجعوا حساباتهم ، قبل أن يمضوا بالعطاء حتى آخر الشوط ؟ ؟.

هذه مسألة أخرى .. ويكفي الحضارة الإسلامية شرفا أنها كانت حضارة إنسانية تعمل من أجل الإنسان أيا كان موقعه في الزمن والمكان ، كما علمته عقيدته أن يعمل .

أليست هي العقيدة القادمة من عند الله سبحانه ، الذى خلق الإنسان ، وعلمه الأسماء كلها ، وحمله فى البر والبحر ، وفضله على الخلائق ، ومنحه السيادة على العالمين ؟ .

تلك هي بإيجاز شديد خصائص حضارة الإسلام : إنها حضارة إيمانية عقيدية ملتزمة ، أصيلة ، منفتحة ، قديرة على الاستجابة للتحديات ، متوازنة ، شاملة ، قديرة على التحقق فى كافة مناحي الحياة والوجود .. ثم هي فى إطارها ونسيجها ، إنسانية ، تعبر عن طموح الإنسان لعمارة العالم وتحضيره ، وتسعى للاستجابة لأشواق الإنسان ومنازعه أيا كان الإنسان فى الزمن والمكان .

أهم المراجع

القرآن الكريم

اوليرى : دى لاسى

الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ، ترجمة اسماعيل البيطار ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت — ١٩٧٢ .

حسن : د. حسن ابراهيم

تاريخ الاسلام السياسى ، الطبعتان الخامسة والسادسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة — ١٩٦٠ — ١٩٦٢ .

خليل : عماد الدين

حول اعادة تشكيل العقل المسلم ، مجلة الأمة ، الدوحة — ١٩٨٣

فى التاريخ الاسلامى : فصول فى المنهج والتحليل ، المكتب الاسلامى ، بيروت ١٩٨٠ .

ملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، الدار العلمية ، بيروت — ١٩٧٠ .

نور الدين محمود : الرجل والتجربة ، دار القلم ، دمشق — ١٩٨٠

الطبرى : محمد بن جرير

تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابى الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، القاهرة ١٩٦١ — ١٩٦٢ .

العقاد : عباس محمود

اثر العرب فى الحضارة الأوربية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠ .

عنان : محمد عبد الله

مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، الطبعة الرابعة ، مؤسسة الخانجى ، القاهرة ١٩٦٢ .

غروبنـــاوم : جي. ئي (تحرير)

الوحدة والتنوع في الحضـــارة الاســـلامية ، تأليف عـــدد من المستشرقين ، ترجمة د. صدقي حمدي ، مكتبة دار المتنبي ، بغداد ١٩٦٦ .

لــوبون : غوســـتاف

حضـارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الثالثة ، دار احياء الكتب ، القاهرة ١٩٥٦ .

ماجـــد : د. عبـــد المنعم

التاريخ السياسي للدولة العربية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ١٩٦٦ .

مظهـــر : جـــلال

اثر العرب في الحضارة الاوربية ، دار الرائد ، بيروت ١٩٦٧ .

يـــونغ : لـــويس

العرب واوربا ، ترجمة ميشيل أزرق ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٩ .

مطبعة عبير للكتاب والأعمال التجارية
١٦ شارع لمعي المطيعي ـ حدائق حلوان